شركة أبناء شريف الأنصاري

للطباعة والنشر والتوزيع

صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية

الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• الدار النموذجية

الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية

بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١

تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١

صيدا - لبنان

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail

alassrya@terra.net.lb

alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-801-4

بسم الله الرحمن الرحيم

قدَّم

للموسوعة الكونية الكبرى

كل من السادة الأفاضل

١ ـ الدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي ـ المفكر والداعية الإسلامي الكبير دمشق ـ سوريا .

٢ ـ الدكتور : عكرمة سليم صبري ـ خطيب المسجد الأقصى ومفتي القدس والديار المقدسة .

٣ ـ الدكتور : محمد جمعة سالم ـ وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف . دولة الإمارات العربية المتحدة .

٤ ـ الدكتور : فاروق حمادة ـ أستاذ السنة وعلومها بكلية الآداب جامعة الملك محمد الخامس المغرب ـ الرباط .

٥ ـ الدكتور : عبد المعطي البيومي ـ عميد كلية أصول الدين جامعة الأزهر ـ القاهرة جمهورية مصر العربية

الموسوعة الكونية الكبرى

١ ـ الجزء الأول : آيات العلوم الكونية وفق أحدث الدراسات الفلكية .

٢ ـ الجزء الثاني : آيات العلوم الكونية وفق أحدث النظريات العلمية .

٣ ـ الجزء الثالث : آيات اللّٰه في خلق الكون ونشأة الحياة .

٤ ـ الجزء الرابع : آيات اللّٰه في السماء الدنيا والسماوات السبع .

٥ ـ الجزء الخامس : آيات العلوم الأرضية وفق المعطيات العصرية .

٦ ـ الجزء السادس : آيات اللّٰه في خلق الأرض وتأمين معايشها .

٧ ـ الجزء السابع : آيات اللّٰه في نشأة الحياة على الأرض وظهور الإنسان .

٨ ـ الجزء الثامن : آيات اللّٰه في البحار والمحيطات والأنهار .

٩ ـ الجزء التاسع : آيات اللّٰه في الجبال والصحاري والغابات .

١٠ ـ الجزء العاشر : آيات اللّٰه في النبات والثمار والأزهار والألوان .

١١ ـ **الجزء الحادي عشر :** آيات اللّه في خلق الحيوانات البرية والبحرية وبعثها وحسابها .

١٢ ـ **الجزء الثاني عشر :** آيات اللّه في ممالك الطير والنحل والنمل والحشرات .

١٣ ـ **الجزء الثالث عشر :** آيات اللّه في الرياح والمطر والأعاصير والبراكين والزلازل .

١٤ ـ **الجزء الرابع عشر :** آيات اللّه في خلق الإنسان وبعثه وحسابه .

١٥ ـ **الجزء الخامس عشر :** آيات اللّه في النوم والرؤى والأحلام ورؤيا الاستخارة .

١٦ ـ **الجزء السادس عشر :** آيات اللّه في الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم .

١٧ ـ **الجزء السابع عشر :** آيات اللّه في الإعجاز التشريعي والغيبي في القرآن الكريم .

١٨ ـ **الجزء الثامن عشر :** آيات اللّه في الأرقام ومعانيها وفواتح السور في القرآن الكريم .

١٩ ـ **الجزء التاسع عشر :** آيات اللّه في الموت ونهاية الكون .

٢٠ ـ **الجزء العشرون :** آيات اللّه في قيام الساعة وبعث الخلائق وتبديل السماوات والأرض .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال اللّه تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ .

[سورة النساء، الآية : ٧٨]

وقال اللّه تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآية : ٣٥]

وقال اللّه تعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ .

[سورة السجدة، الآية : ١١]

وقال اللّه تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآية : ١٠٤]

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية : ٦٧]

حديث شريف

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها ـ قال حماد الراوي ـ: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبل الأرض صلّى اللّه عليك وعلى جسد كنت تعمُرينه، فيُنطلقُ به إلى ربه عزّ وجلّ، ثمّ يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد ـ وذكر من نَتْنها وذكر لعناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردَّ رسول اللّه ﷺ رَيْطَة كانت عليه على أنفه هكذا» رواه مسلم في صحيحه.

عن أنس رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد اللّه ورسوله فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك اللّه به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون، وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه» رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده وأبو داود في السنن.

الإهداء

وهبت عملي:

إلى اللّه تعالى.... ربنا ورب السماوات السبع والأرضين السبع، وما بينهما ورب الخلق أجمعين، الذي لا تضيع عنده الأعمال الصالحات، القائل في محكم كتابه:

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٤٦]

والقائل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ١٠٥]

فتقبل مني إنك أنت العليم الخبير.

وإلى رسول اللّه ﷺ الذي بيَّن لنا في أحاديثه الشريفة الكثير عن حقائق الخلق، ونشأة الكون وخلق السماوات والأرض، والإنسان، والحيوان، والنبات، والبحار، والأنهار، والجبال، والطب.... وبيَّن لنا كيف تكون نهاية الحياة، وانفطار السماوات، وقيام الساعة، وكيف يكون البعث والنشور والحشر، ويوم القيامة..

اللّهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله صلاة أهل السماوات والأرضين، واجعلنا اللّهم بالصلاة عليه من الفائزين، وبسنته من العاملين، وعلى حوضه من الواردين، وبشفاعته من الناجين، ومنه ومن آله وصحبه في جنات النعيم من المقربين.

هذه الموسوعة الكونية الكبرى

تشتمل في أجزائها العشرين على علوم جمعت أكثر من خمسين علماً فصلت القول فيها مستمداً العون من:

١ ـ كتاب اللّه تعالى.

٢ ـ سنة رسول اللّه ﷺ.

٣ ـ من كبار المفسرين لكتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٤ ـ من العلوم والمعارف الإنسانية وفق أحدث النظريات العلمية الحديثة.

٥ ـ من الموسوعات العالمية والإسلامية والعربية.

٦ ـ من الموسوعات الشخصية لكبار الكتاب والمؤلفين المعاصرين.

٧ ـ من كبار المفسرين والعلماء والباحثين والمفكرين.

٨ ـ وقد استمدت هذه الموسوعة الآراء والأفكار من ٢٦٩ عالماً وباحثاً في شتى العلوم والمعارف الإنسانية.

وقد تحدثت هذه الموسوعة عن خلق الكون، والأرض، ونشأة الحياة، وخلق الإنسان، والحيوان والطير والحشرات، والنبات، والنوم، والرؤى، والأحلام، وتحدثت عن الإعجاز في الأرض، والجبال، والبحار، والفضاء، وكذلك تحدثت عن الإعجاز التشريعي والغيبي، والرقمي، واللغوي، وآيات اللّه في الرياح، والمطر، والبراكين.

وقد تحدثت عن نهاية الكون، والحياة، والموت، وقيام الساعة، والحشر، وتبديل السماوات، والأرض.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم
المفكر والداعية الإسلامي الكبير
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
دمشق ـ سوريا

«الموسوعة الكونية الكبرى»!!

استوقفني هذا العنوان.. وسألت نفسي: من الذي يملك أن يضع موسوعة علمية عن الكون كله؟... وهل الكون إلا معجم لكلمات اللّه؟.. ألم يقل اللّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ١٠٩]

إذاً، فلا بد أن يستنفد الباحث الجليل الشيخ ماهر، مياه البحار كلها، مداداً لرسم الكلمات الكونية كلها، مترجمة إلى ظواهر علمية!!.. ولكن أفيمكن هذا؟!..

غير أني نظرت، وأنا أستعرض من هذه الموسوعة بعض أجزائها العشرين، وإذا الباحث حفظه اللّه ينظم من عناوين هذا الكتاب الكوني وحدها هذه الموسوعة الشاملة الكبرى.. ترى ماذا سيكون حجم عمله لو حاول أن يعرض لما تحت العناوين؟..

ومع ذلك، فممّا لا ريب فيه أن إنشاء موسوعة كونية من هذه العناوين وحدها، يحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل، وعرض لكل ما يقال اليوم وقيل بالأمس عنها... **غير أن التوفيق الذي حالف باحثنا العالم النشيط عندما أخرج لنا «موسوعة الآخرة» سيكون رفيقه إن شاء اللّه في رحلته الكونية هذه.**

العقبة التي أود أن أذكِّر أخي الشيخ ماهر بها، وهو ماضٍ في رحلته العلمية

الفريدة هذه، وهي: أنه سيجد الباحثين العلميين الأجانب، لم يتركوا ظاهرة كونية، في سماء اللّه وأرضه وبحاره، وفي غابر الأزمنة ومستقبلها، إلا وأدلوا بتقرير (علمي) حسب قناعاتهم بشأنها، فيتلقفها الناس أَو جُلُّهم على أنها حقائق علمية ثابتة. ولا ريب أن هذا التعميم في الحكم ينطوي على خطأ كبير.

إن قرار **«المنهج العلمي لمعرفة الحقائق»** يقول: إن الظواهر الكونية المادية الخاضعة للتجربة والمشاهدة، لا يمكن أن يتم الوصول إلى يقين علمي بشأنها إلا عن طريق التجربة والمشاهدة.. وأقول: إن هذا ممكن وميسور لا سيما في هذا العصر الذي تكاثرت وتطورت فيه أجهزة المشاهدة والتجربة.. أما حقائق الماضي السحيق أو المستقبل البعيد، فهي من الغيب الذي لا سبيل إلى العلم به إلا عن طريق الاعتماد على الخبر الصادق بشروطه العلمية المعروفة.

غير أن الغربيين اليوم يقتحمون بأفكارهم ظلمات الماضي واحتمالات المستقبل، وينسجون من تخيلاتهم التي يعودون بها، ما قد يجزمون بأنه من الحقائق العلمية، كحكمهم الغيبي بأن الكون قد انبثق أيام كان معدوماً من **الانفجار الأعظم**، وكقرار كثير منهم بأن الإنسان كان ينتمي إلى فصيلة حيوانية أقل شأناً، ثم تطور صعداً تحت سلطان قانون البقاء للأصلح، وكالتوقعات المستقبلية المتعلقة بالفلك ومصير الأرض والإنسان.. فهذه الأحكام وأمثالها لا تعلو فوق درجة الفرضيات أو النظريات. ومن ثم لا يجوز اتخاذها سنداً في تفسير أو تأويل شيء من كلام اللّه عز وجل عن الكون في القرآن.

إن المأمول أن يكون لهذه الموسوعة صدى إيجابي كبير في الأوساط العلمية والإسلامية، إن سار باحثنا الجليل في رحلته العلمية الموسوعية هذه، ملتزماً قواعد منهج البحث عن الحقيقة، واضعاً الأحكام الغربية المتسرعة عن غيبيات الكون تحت مجهر النقد. وذلك من واقع اهتماماته العلمية ونشاطاته الفكرية وغيرته الدينية.

واللّه ولي التوفيق.

الدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم
الدكتور عكرمة بن سليم صبري
خطيب المسجد الأقصى
والمفتي العام للقدس والديار المقدسة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين المبجلين وصحابته الغر الميامين المحجّلين، ومن تبعهم وسار على دربهم واقتفى أثرهم وسن سنتهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإني أمام موسوعة كبيرة في حجمها، غزيرة في معانيها، عميقة في أفكارها، إيمانية في توجهاتها، إنها تجسد جهداً مباركاً فتحه اللَّه رب العزة للأخ الفاضل الباحث ماهر أحمد الصوفي حفظه اللَّه ورعاه، وزاده بسطة في العلم وما حواه، وجعل الجنة مأواه.

وحينما تمعنت في هذه الموسوعة الزاخرة أيقنت أن أمتنا الإسلامية لم تمت ولم تسترخ بل فيها رجال وعلماء يبحثون وينقبون في كنوز القرآن التي لا ينضب معينها.

فهذه الموسوعة الكونية لم تترك شاردة ولا واردة تتعلق بالآيات الكونية في القرآن الكريم إلا تناولتها للدلالة على عظمة الخالق رب العالمين وقدرته على تيسير الكون وتنظيمه، هذا الكون الذي يسبّح للَّه عز وجل ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

هذه (الموسوعة الكونية الكبرى) التي ضمت بين دفتيها عشرين جزءاً بموضوعات متعددة ومتنوعة ومتناسقة ومتكاملة تبرز فيها آيات اللَّه عز وجل

وقدرته في أكبر أجرام الكون وتتجلى في أصغر مخلوقاته، سبحانك يا رب ما أعظم قدرك وما أعلى شأنك.

وأرى أن هذا العمل الكبير غير مسبوق في تعداد أجزائه، وتنسيق معلوماته، واشتماله على كثير من العلوم الموثوقة منذ خلق اللّه السماوات والأرض، إلى نهاية الكون وقيام الساعة، وفق أحدث النظريات العلمية المعاصرة.

وإنّه لَمِن البديهيات أن التفكر في نظام الكون وفي مخلوقاته هو عبادة من العبادات، لأنها تقود إلى إيمان فوق إيمان، وإلى يقين فوق يقين.

وعليه فإني أوصي كل إنسان مثقف، مسلماً كان أو غير مسلم، أن يقتني هذه الموسوعة العظيمة ليزداد المسلم إيماناً ومعرفة، ولينشرح صدر غير المسلم للإيمان وقلبه للإسلام.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أقول: **جزى اللّه الأخ الفاضل الباحث ماهر أحمد الصوفي على إخراج هذه الموسوعة الكبيرة خير الجزاء**، وأسأله عز وجل أن يكون عمله خالصاً لوجهه الكريم وأن تكون في ميزان حسناته: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

[سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩]

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد للّه رب العالمين.

الدكتور: عكرمة بن سليم صبري
خطيب المسجد الأقصى
والمفتي العام للقدس والديار المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم
الدكتور محمد جمعة سالم
وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبو ظبي

الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً وجعل القرآن هداية ونوراً وبشّر فيه عباده الصالحين أن لهم من اللّه أجراً عظيماً، ورفع فيه ذكر الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات فضلاً منه ورحمة وتكريماً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً. . . فالقرآن الكريم آيات بينات جعله اللّه سبحانه تبياناً لكل شيء بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٨٩]

فقد نهل منه المفسرون والعلماء على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان مادة أصيلة لكتبهم وعلومهم ومؤلفاتهم، وبذلك تفرعت منه عشرات الآلاف من الكتب تنهل من معينه وعلمه وإعجازه وما أودعه اللّه فيه من علم الأولين والآخرين ولم يبق علم من العلوم إلا استقى مادته واستشهد من هذا الكتاب العظيم فقهاً وتشريعاً وتفسيراً وعلماً، فهو الكتاب الذي أنزله اللّه سبحانه بعلمه ليكون منظماً لحياة الناس في شؤون دينهم ودنياهم.

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٦]

ولا شك أن القرآن الكريم لما نزل على سيدنا محمد ﷺ نقل البشرية نقلة كبيرة حيث أخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والعلم بما تحتويه آياته الكريمة من إشارات علمية عن هذا الكون العظيم. . . وكانت هذه الإشارات

العلمية مفتاح العلوم والدراسات ومنذ العصور المتقدمة، وعمد مفسرونا السابقون إلى تفسير هذه الإشارات العلمية القرآنية بما آتاهم اللّه سبحانه من علم فمنهم من برع في علوم التفسير خاصة في الآيات الكونية والإشارات العلمية كالإمام فخر الدين الرازي صاحب التفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب ولكن الحركة العلمية لتفسير آيات الإعجاز العلمي في القرآن لم تبدأ فعلياً إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

وذلك بعد التطور الكبير الذي شهدته العلوم الحديثة والاكتشافات الكونية في شتى أنحاء العالم، وقد شجعت هذه الاكتشافات العلمية الحديثة في الكون والتي وافقت ما ذُكِر في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، لذا سارع العلماء والكتاب والمفسرون إلى شرح وبيان إعجاز هذه الآيات القرآنية التي تحدثت عن الكون والأرض والإنسان والجبال والنبات والحيوان، وكثرت هذه المؤلفات وتعددت مناهجها وسبل طرحها وتفسيرها واستشهادها بالنظريات العلمية الحديثة وكلها تؤكد بالحجة والبرهان والعلم والعقل أن هذا القرآن هو من عند اللّه سبحانه، وقد سارع المسلمون وخاصة في الآونة الأخيرة إلى مدارسة القرآن الكريم وتوسعوا في فهم علومه وبيانه وإعجازه ذلك أن اللّه سبحانه رفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات يقول تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴾.

[سورة المجادلة، الآية: ١١]

ومن هذه المؤلفات ما تناول علماً واحداً كعلم السماء، ومنها ما تناول الإنسان، ومنها ما تناول النبات، أو الجبال، أو البحار ومن الكُتَّاب من جمع أكثر من علم في كتاب واحد، وجميع هذه المؤلفات جمعت ما بين إعجاز الآيات الكريمة والعلم الحديث وهذا أدى إلى تفاعل العلوم والتفسير فأصبحت هذه الكتب رافداً علمياً جيداً للمسلمين فمع بيان إعجاز اللّه سبحانه في كتابه جاءت التفصيلات العلمية وأحدث النظريات مثل تفسيرهم لقوله تعالى:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

[الواقعة، الآيتان: ٧٥، ٧٦]

استعرض المؤلفون علم النجوم، والكواكب، والمجرات، وجاؤوا بأحدث ما توصل إليه العلم في هذا المجال العلمي وكذلك تعرضوا لآيات

الإنسان، وآيات النبات، والحيوان والبحار، والمطر والرياح وغيرها كثير.

. . . . . ومن هؤلاء الذين شاركوا في هذا العلم وهذه المؤلفات العلمية الكونية وبيان إعجاز القرآن الكريم في الآيات الكونية الباحث ماهر أحمد الصوفي في موسوعته الجديدة غير المسبوقة **(الموسوعة الكونية الكبرى)** حيث وصل عدد أجزائها إلى عشرين جزءاً، والمطلع على عناوين هذه الموسوعة يجد أن هذه الموسوعة شملت أنواعاً كثيرة من العلوم حيث بدأ المؤلف هذه الأجزاء بآيات العلوم الكونية ثم آيات اللّه في خلق الكون وآيات اللّه في السماوات، ثم انتقل إلى آيات اللّه في الأرض في خلقها وتأمين معايشها ونشأة الحياة عليها وظهور الإنسان، ثم انتقل الباحث المؤلف إلى آيات اللّه في البحار والجبال والنبات والحيوان وممالك الطير والحشرات وكذلك آيات اللّه في الرياح والأمطار ـ والأعاصير ـ وتحدث عن خلق الإنسان ـ والرؤى والأحلام وكذلك تحدث في الأجزاء الخمسة الأخيرة عن الإعجاز اللغوي والبياني والغيبي والتشريعي والإعجاز الرقمي والعددي وآخر الأجزاء تحدثت عن الموت ونهاية الكون والبعث والنشور وتبديل السموات والأرض التي بدأ الحديث عن خلقها في الأجزاء الأولى. . . حقاً إنها موسوعة نادرة وحديثة ولم يسبق إليها أحد في هذا المستوى العلمي والعددي وتنوع العلوم وبيان إعجاز آيات اللّه سبحانه في هذا الكون العظيم من الذرة إلى المجرة ومن بداية الخلق إلى يوم القيامة.

أسأل اللّه العظيم أن يكون هذا العمل خالصاً للّه وابتغاء وجهه الكريم وأن يجعل له انتشاراً واسعاً في عالمنا الإسلامي كما نأمل من المؤلف أن يسعى إلى ترجمة هذا العمل الكبير إلى مختلف اللغات لتعم الفائدة جميع المسلمين على مختلف أقطارهم وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسنات المؤلف وكل من ساهم في هذه الموسوعة من مقدمين وعلماء ومدققين وناشرين، وجعل موعدهم الجنة أجمعين وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول: « **من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل اللّه له طريقاً للجنة** » وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

الدكتور محمد جمعة سالم
وكيل وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
أبو ظبي/ دولة الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم
الأستاذ الدكتور فاروق حمادة
أستاذ السنة وعلومها
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب

الحمد للّه رب العالمين ـ والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد اللّه، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغُرّ الميامين ـ أما بعد:

أخي العزيز الطَّلعة الأستاذ ماهر أحمد الصوفي ـ زادك اللّه توفيقاً، فقد اطلعت ـ وأنا على جناح سفر، وشغل بالٍ ـ على طرفٍ من كتابك المسمى «الموسوعة الكونية الكبرى» وليس هذا بأول أعمالك وفضائلك، فقد سعدت من قبل بكتابك النافع المتميِّز (موسوعة الآخرة). وها أنت تتبعه اليوم بموسوعة الكون ـ في وقت تعاظم فيه الحديث عن نتائج العلوم وخطواتها الواسعة، وميادينها الشاسعة في دراسة الحياة، والكون ومظاهره، وشارك في هذه الدراسات كل شعوب الأرض ـ وإن كان ذلك بنسب مختلفة ـ من خلال مسيرة طويلة بدأت منذ آماد بعيدة، وهي متتابعة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وتقوى هذه المسيرة حيناً، وتضعف حيناً آخر. وقد وصل الدارسون إلى حقائق أصبحت قطعية، وأخرى لا زالت في حيز النظر والتخمين. وأخرى انكشف عُوارُها، وثبت خطؤها وبوارها.

لقد كان نزول القرآن الكريم منعطفاً عظيماً، ومحطة هامة في توجيه الإنسان للنظر في الكون ـ والحياة، فالكون بما فيه ـ دال على اللّه، هادٍ إلى

معرفته، مظهر لأسمائه الحسنى وصفاته العُلى وهو خاشع خاضع، مسبِّح لبارئه.

لهذا كانت دعوة القرآن من أول يوم من نزوله. إلى التأمل فيه، وإدراك قوانينه، ومعرفة أحواله، وتقلباته، وأصنافه، ومتفقاته ومختلفاته. وقد بين لنا القرآن الكريم قواعد وحقائق عنه حتى لا يزلّ الإنسان ولا يتيه...

فمن كتاب اللّه المنظور، ينتقل العاقل المتأمل الرشيد إلى كتاب اللّه المسطور ليوقن بصدق الوحي، فيسمو بروحه وفكره إلى درجة الخاشعين المصدقين الذين تنطلق من حناجرهم ومشاعرهم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٩١]

وإن النظر في كتاب اللّه المسطور، والوقوف أمام آيات الكون خاصة، والنظر فيها بحقائق العلم، ويقينيات المعرفة المعاصرة ستكشف عن صدق هذا الكتاب العزيز. وأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فتزول غيومُ شكٍّ وأوهامُ غفلةٍ رانت على بعض القلوب، وغشيت بعض العقول، كيف لا؟ واللّه تعالى قد أخذ العهد على نفسه أنه سييسر للمكلفين هذه السبيل ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟!

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

وإنك بعملك هذا الذي قدمته أيها الأخ الباحث ماهر أحمد الصوفي في الموسوعة الكونية الكبرى ـ من ضمِّ الآيات ذات الموضوع الواحد، والعطف عليها بما توصلت إليه الدراسات العلمية في موضوعها، وخاصة تلك الدراسات التي أنجزها الباحثون في القرن العشرين للميلاد، قد أفدتَ فيه وأجدتَ.

وعملك هذا يأتي في السياق القرآني في الجمع بين الآيات المسطورة والمنظورة، وتثير بذلك وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني المستمر الدائم، المتنامي المتعاظم، وتثبت كذلك أنه لا يوجد في القرآن الكريم ـ على كثرة الدراسات وتنوعها في الكون والحياة ـ خطأ، أو تناقض، أو قصور.

وهذا جهد جليل في الدلالة على اللّه والهداية إليه وإقامة الحجة على الشاردين المعرضين تحت شعار العلم، وتقدمه، بمعطيات العلم وقطعياته بل وظنياته وفرضياته. مما يتعلق به المعرضون المدبرون وغيرهم.. **فهنيئاً لك بهذا الجهد العلمي الضخم الواسع**، ولكم كنت أتمنى أن يكون البحث في هذا الموضوع من كل مَنْ كتب فيه مركزاً مقصوراً على القطعي اليقيني - حتى لا تصبح آيات القرآن الكريم وتفسيرها في هذا الباب مهيعاً لا حدود له ولا ضوابط. وفي الختام أسأل اللّه تعالى أن ينفع بهٰذا الكتاب، ويهدي به، وبغيره من الكتب التي ألفتها إلى الحق والصواب. وأن يرزقنا وإياك الإخلاص والسداد والرشاد في القول والعمل وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

وكتبه

خادم القرآن والسنة

الأستاذ الدكتور فاروق حمادة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم
الدكتور عبد المعطي البيومي
عميد كلية أصول الدين
جامعة الأزهر ـ مصر

أرسل اللّه سبحانه الرسل، وأنزل الكتب، لترسم معالم المنهج الصحيح لرقي الإنسان المعرفي والثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولتكون حياته البشرية على أتم ما يكون الكمال والسعادة في الحياة، وما بعد الحياة.

ولا يتم ذلك إلا باستيعاب الرسالات السماوية، وتدبر الكتب التي نزلت بها تدبراً يتسع به وعي الإنسان، لتحقق سعادته حين يتعقل كلية.

والقرآن الكريم نزل آخر الكتب السماوية ليفسر العالم وجوده ومظاهر الطبيعة فيه ليستطيع الإنسان تسخير كل ما في الكون، والانتفاع به. كما يقول تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة الجاثية، الآية: ١٣]

ومن ثم اشتمل القرآن على آيات كونية وأخرى إنسانية، ولفت النظر إلى السماء والأرض والجبال والبحار والنبات والحيوان، ليشير إلى القوانين التي سخرت بمقتضاها هذه الأكوان، وحضَّ الإنسان على معرفة مفاتيح هذه القوانين، وسبب تسخير هذه الأكوان، ثم التوصل بها إلى معرفة الخالق لها، وإبداعه في خلقها.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾

[سورة القمر، الآية: ٤٩]

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

[سورة الفرقان، الآية: ٢]

ولذلك توارد المفسرون منذ نزل القرآن الكريم على تفسير واكتشاف آياته الكونية وإعجازه العلمي، كل على حسب مستواه العلمي، ومستوى ثقافة عصره وإحاطته بمعاني آياته، وإلمامه بإنجازات عصره.

وكان الإمام «فخر الدين الرازي» من أشهر هؤلاء المفسرين الذين وقفوا على الآيات الكونية في القرآن الكريم فحاولوا مبكرين أن يفسروها في ضوء ثقافة عصرهم مطبقين ومتمثلين لقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

فكان تفسيره الجليل مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أكثر التفاسير وقوفاً عند الآيات الكونية وتأمل إعجاز الخالق وإعجاز القرآن معاً.

لكن القرآن نزل لكل العصور، ويكشف عن نفسه ومعاني آياته لكل الأجيال، في ضوء ما تحرز هذه الأجيال من الثقافة العلمية، وكذلك جاء بعد الرازي **الشيخ حسن العطار** من أوائل شيوخ الأزهر العظماء الذين تعرضوا لشرح الآيات الكونية، وجاء بعده **الشيخ طنطاوي جوهري** الذي توسع في شرح هذه الآيات الكونية، بأكثر ممَّا فعل الشيخ العطار وتوالت المحاولات.. حتى من الذين لم يدرسوا الثقافة الإسلامية دراسة مبكرة أو تخصصوا في علومها الدينية واللغوية، وكونهم تخصصوا في العلوم الكونية فعرفوا العلم، وقارنوا ما استطاعوا بين القرآن والعلم، ليكشفوا آيات اللّه في الكون، ويمكن أن يؤخذ هنا على سبيل المثال لا الحصر الدكتور «**موريس بوكاي**» في كتابه عن **حقائق العلم في ضوء الكتب المقدسة الثلاثة بل إن الموضوع اتسع لغير المسلمين أحياناً كثيرة من أولئك الذين بهرهم القرآن بإعجازه في الإشارة إلى حقائق الكون وإشارات لا تخطئها الحقائق العلمية في عصر تقدم العلم واتساع آفاقه، حتى إن تقدم العلم واتساع آفاقه أيّد قضية القرآن وكشف توافق القرآن في تعبيره وإشاراته مع الحقائق التي اتفق عليها العلماء.**

ومن ثم كان لدينا فريقان من الذين اهتموا بالآيات الكونية في القرآن الكريم:

١ ـ فريق متخصص في العلوم، مطلع على الآيات القرآنية، يفهمها في ضوء تخصصه العلمي، ويعرفها في ضوء العلم.

٢ ـ وفريق متخصص في الدراسات الإسلامية، مطلع على حقائق العلم، يفهمها في ضوء مقررات الإسلام وآيات القرآن، ويعرض حقائق العلم في ضوء هذه المقررات والآيات.

وهناك فارق ملحوظ بين الفريقين:

ذلك أن **«معالم الأمان»** أكثر توفراً لدى الفريق الثاني الذين استوعبوا الحقائق الدينية ويعرضون مقررات العلم في ضوئها لطول خبرتهم بالدراسات الإسلامية فإنتاجهم أكثر أماناً من الخطأ في المقارنة بين الإسلام والعلم، من الفريق الأول الذي قد تُؤَثِّر ثقافة بعضهم العلمية على حساب الحقائق الدينية.

وعلى كل حال، خطأ المتخصصين في الإسلام إن أخطؤوا في حقائق العلم، أهون من خطأ الدارسين للعلم ـ وإن حدث ـ في حقائق الإسلام. لأن الرصيد في العلم الشرعي يحمي الدارسين له أكثر مما يحمي المطلعين على هذا العلم الشرعي مجرد اطلاع دفعت إليه الرغبة أو الهواية التي انطلقت أساساً من العلم التجريبي ونصرته بالدين، بينما انطلقت رغبة الفريق الثاني من نصرة الدين بالعلم.

ولا يمنع من هذا الفارق ما قد يوجد من بعض هؤلاء وهؤلاء ممن نجحوا في المقارنة بين الدين والعلم، دون خطأ في الدين أو العلم.

. . . على أن العمل العلمي الضخم الذي بين أيدينا الآن لكاتبه الباحث ماهر أحمد الصوفي هو من الفريق الثاني حيث تخصص كاتبه في الدراسات الإسلامية وسبق له العمل الموسوعي في مجال الدين حيث قدم لقراء العربية **«موسوعة الآخرة»** من بداية أشراط الساعة حتى بلوغ أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، مع وصف موسع للجنة والنار وبهذا الاتساع والاستيعاب في البحث بدأ عمله العلمي الضخم بدراسة الكون منذ قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ .

[سورة هود، الآية: ٧]

واستعرض البدايات المبكرة لعلم الفلك، وما جرى من خلق الكون بسماواته وأراضيه، وما في الكون من حياة وأحياء، وما فيه من بحار ومحيطات وأنهار، ومن جبال ووديان وصحاري وسهول وأدغال، ومن حيوان ونبات وألوان حتى بلغ أحدث النظريات، والحقائق العلمية في ساعة كتابة ما كتب في هذا العمل الكبير.

فهو بالإضافة إلى تخصصه الديني الذي يجعله أكثر أماناً من الخطأ لأنه يقف على حقائق العلم ويراها في ضوء الدين أكثر مما يرى المتخصص في العلم حقائق العلم، ويقرأ الآيات القرآنية في ضوء معارفه العلمية، فإنه يتوسع بهذه المرجعية الدينية المأخوذة في عرض المسائل العلمية على حقائق القرآن ولا يعرض ـ كما يفعل بعضهم ـ حقائق القرآن على مقررات العلم **وهكذا اجتمع لهذا العمل العلمي الكبير عدة ميزات:**

١ ـ **هذه المرجعية الدينية الأولى** التي أشرنا إليها، وهي مرجعية آمنة، وأمينة على حقائق الدين، يواكبها التزام بحقائق العلم الثابتة والأخبار العلمية الصحيحة.

٢ ـ **يقدم أحدث ما أنتج العلم** مع الأصالة فيما قرره الدين.

٣ ـ **يقدم بالمقارنة بين الدين والعلم في اتساق واضح**، لأنه يلتزم بالحقائق العلمية الثابتة التي لا تتغير حتى لا تتغير المفاهيم القرآنية بتغير بعض النظريات العلمية المتطورة دائماً، وقد يؤدي تطورها إلى تغيرها بالكلية، فلجوؤه إلى ثوابت العلم أنسب في تناول الموضوع حين يكون مقارنة مع ثوابت الدين.

٤ ـ **كل ذلك مع سهولة الأسلوب، وتبسيط العلم، وتيسير عرض حقائقه للقارئ. ولعل ذلك هو الذي دفع الباحث ماهر أحمد الصوفي كاتب هذه «الموسوعة الكونية الكبرى»** إلى عرض عمله العلمي بطريقة تختلف عن الموسوعات الأخرى التي تلتزم بالموضوعات وفق حروف الهجاء، مع ما يترتب على هذه الطريقة من عرض المعلومات المتفرقة المفككة فهي

تحتاج إلى رابط بينها، لكن الطريقة التي اعتمد عليها الكاتب الباحث تقدم عرض الموضوعات تحت عنوان موضوعي يجمع شتات الموضوع في عرض تاريخي علمي كأن يعرض المعلومات المتفرقة تحت عنوان آيات اللَّه في السماء، أو آياته في البحار والمحيطات والأنهار، فذلك أجمع في عرضه لذهن القارئ وأكثر إفادة في ربط المعلومات في سياق واحد مفيد.

نرجو اللَّه أن يجعل له ذلك في ميزانه، خدمة للدين والعلم، ومرضاة له، وتجلية لما احتوى عليه القرآن الكريم من وجوه الإعجاز في مجال الخلق والعلم على السواء.

الأستاذ الدكتور عبد المعطي البيومي
عميد كلية أصول الدين
القاهرة ٢٢/ رمضان/ ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

سبحان اللَّه في لحظة ما خلق اللَّه سبحانه الكون وقضت حكمته أن يبقى هذا الكون ويستمر في التوسع إلى يوم معلوم هو بعلم اللَّه وحده لم يُطلع عليه أحداً من خلقه حتى ولا أقرب الملائكة إليه

.. خلق الكون، ونهاية الكون أمران غيبيان في علم اللَّه وحده لم يُشهد اللَّه أحداً على خلق السماوات والأرض يقول تعالى:

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٥١]

كذلك لم يطلع أحداً من خلقه متى ينتهي الكون وتنتهي الحياة الدنيا.

يقول تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٨٧]

الأمر الأول الغيبي وهو خلق الكون، وقد حاول العلماء على مدى قرون دراسة السماء ونجومها وكواكبها وأقمارها وإن كانت البدايات صعبة وضعيفة لقلة الإمكانيات والأدوات التي تساعدهم على ذلك، ولكن وإن وصل علماء اليوم إلى كثير من العلوم والنظريات الحديثة إلا أن هذا لم يكن لولا تسلسل المعرفة والاكتشافات خلال قرون عدة مضت وارتحلت، لقد كانت البدايات قديمة ومنذ أيام بطليموس، وأرسطو، وأرخميدس.. محاولات الإنسان لم تتوقف حتى لو كانت تعتمد الرصد النظري.... وإن

ما كان قبل ثورة (كوبرنيكوس) ليس إلا محاولات ونظريات وفرضيات لم تعدُ التوقع والحدس والتخمين، ولم يدخل أحد في إحداث نظريات عن عمر الكون وبداية الخلق وخلق السماوات والأرض فهذا لم يكن بمقدورهم، ولا يعني هذا أنهم لم يحاولوا فالإنسان يتمنى وإن لم يستطع، فعدم الاستطاعة لا تلغي الأمل والتمني.

لا شك بأن السماء من فوق رؤوس الناس شغلتهم بنجومها وكواكبها وأقمارها وأرادوا أن يعرفوا سرها وسر وجودهم على الأرض، وهل الأرض هي مركز الكون أم هي جزء من هذا الكون؟.. الناس تعيش على الأرض فهل يعيش مثلهم على تلك الكواكب والنجوم من فوقهم، وما هي حقيقة حجم هذه النجوم والكواكب التي تظهر للعين المجردة في السماء وتبدو لهم كعقلة الأصبع؟ هل هي كبيرة مثل الأرض أم صغيرة لا يستطيع أن يعيش عليها أحد، وهل الشمس التي تسطع من الصباح إلى الغروب أكبر من الأرض.. كانوا لا يعرفون، كانوا ينظرون إلى الشمس فيجدونها كقرص دائري أكبر من القمر فيقولون: الشمس أكبر من القمر، لم تكن عندهم إمكانيات لقياس قطر الشمس ولا قطر القمر ولا يعرفون أن الشمس تبعد عن الأرض ٩٤ مليون كم وأن القمر يبعد فقط حوالي ٢٨٤ ألف كم والفرق بين البعدين هائل وأن المساحة تقدر بالبعد والقرب.. ولو أن القمر ابتعد عنا ضعف المسافة أو ضعفي المسافة لاختفى عن أنظارنا بينما الشمس تبعد عنا ٩٤ مليون كم ومع ذلك نراها، فهم لم يكونوا يعلمون أن الشمس يزيد حجمها عن حجم الأرض ١,٣٠٠ مليون وثلاثمائة ألف مرة ولهذا نراها رغم بعدها الشاسع وذلك لكبر حجمها. هكذا كانت العلوم بسيطة إلى أن بُدِئ بتصميم أول تلسكوب أرضي بدائي وبدأ الإنسان برصد الكواكب والنجوم وحركاتها وتنقلها ودورانها وبدأت هذه التلسكوبات تتطور شيئاً فشيئاً وأخذت الاكتشافات تتطور والمعرفة تزداد وبدأت النظريات العلمية تتكاثر حول هذا العالم المجهول عالم الكون... ولكن لم تكن هناك ثورة حقيقة لعلم الفلك إلا بعد ثورة العالم الفلكي (كوبرنيكوس)، واعتبره كثير من العلماء هو الفاصل الحقيقي بين علم الفلك القديم وعلم الفلك الحديث.

ثورة العالم الفلكي (كوبر نيكوس) كانت بداية علم الفلك الحديث

يقولا كوبر نيكوس العالم الفلكي (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) هو أول عالم قام بنقد نظرية (بطليموس) التي تقول: إن الأرض مركز الكون. ونظرية كوبر نيكوس الفلكي تعتمد في فكرتها أن الشمس يجب أن تكون هي المركز لكل الكواكب حتى تتمكن من مدٍّ سائر الكواكب السيارة بالضوء.. وقد لاقت نظريته هذه استحسان وقبول علماء إنجليز وألمان واعتمدوها بعد أن حسبوا مواقع الكواكب.

وقد أدت أعمال الفلكي الدانماركي **تايخو براهي T.Brahi** (١٥٤٢ ـ ١٦٠١م) دوراً حيوياً في إثبات نظرية كوبر نيكوس، وذلك بعد أن كان قد شهد حدثاً نادراً حول نجم سوبر نوڤا supernova فقام براهي بتصميم أجهزة فلكية أكبر وأكثر إتقاناً من الناحية الهندسية والعلمية تفوق أية أجهزة أخرى سبق استخدامها. فبنى هذا الأخير مرصداً فريداً عام ١٥٧٦ م أطلق عليه اسم يوراتيبرج أي قلعة السماء، فقام ومعاونوه بقياس مواضع النجوم والكواكب في السماء لمدة تزيد على عشرين سنة، جامعين البيانات اللازمة لرصد الأجرام السماوية.

وقد **آمن براهي** بنظام ثالث أطلق عليه اسم **«النظام التايخوي»** وهو يختلف عن نظامي بطليموس وكوبر نيكوس ويقول ما مفاده: إن الكواكب تدور حول الشمس وبأن كل هذه المجموعة من الكواكب بما فيها الشمس تدور حول الأرض، وهذا النظام الجديد يبدووكأنه نظام توفيقي بين النظامين السابقين. ورغم كل ذلك فإن أبحاث تايخو براهي الفلكية التي تطورت لاحقاً ساعدت العلماء الذين جاؤوا بعده على إقامة الدليل القاطع على صحة نظرية كوبر نيكوس.

كان تايخو براهي في مرصده العظيم بحاجة إلى عالم رياضي يساعده في حساباته خلال عشرين سنة في العمل، هذا العالم الرياضي كان **جوهان كيبلر (١٥٧٢ ـ ١٦٣٠ م)** الشاب الذي كان يدرس الرياضيات وقد أبدى مهارة فائقة عندما كان يحسب مدارات الكواكب، وغدا كيبلر مساعداً لبراهي فاستخدم أرصاده وأثبت أن مدارات الكواكب السيارة ليست دائرية بشكل تام كما كانت تقضي القواعد التي وضعها كوبر نيكوس، بل هي على شكل قطع ناقص أو إهليلجية Elliptical. وإن الشمس تحتل إحدى بؤرتي القطع

الناقص، فكان هذا أول قانون من قوانين كيبلر الثلاثة التي تحكم النظام الشمسي.

أما القانون الثاني فيقول: بأن الكواكب السيارة تزداد سرعتها عندما تقترب في مداراتها البيضاوية من الشمس مقارنة بسرعتها في أقسام مداراتها البعيدة عن الشمس.

وجاء كيبلر بقانونه الثالث قائلاً: إن مربع زمن الدورة لأي كوكب يدور حول الشمس يتناسب مع مكعب بعده عنها، وعندما جمع بين هذه القوانين الثلاثة اتضح أن ثمة قوة جاذبية تعمل بين الأجرام السماوية.

طمح كيبلر منذ شبابه لأن يكتشف العلاقة بين أبعاد الكواكب، كي يتجلى أمام عينيه ذلك الانسجام الرائع الذي صنعه الخالق عز وجل.

ولذلك فقد أطلق على القانون الثالث اسم القانون التوافقي **Harmonic** فهو يبين في الواقع أن هناك تأثيراً جوهرياً بين الكواكب والشمس، يعود الفضل إلى هذا القانون التوافقي بتوجيه نيوتن نحو وضع نظرية الجاذبية وبإيجاد ما عرف بالفترة الفلكية (وهي عبارة عن الوقت الذي يستغرقه الكوكب في قطع الرحلة الواحدة حول الشمس بادئة ومنتهية في نقطة تقع على خط يصل بين أحد النجوم البعيدة).

ثم جاء **جاليليو جاليلي** (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م) فصوب التلسكوب ـ علماً أنه تلسكوب عالمي صنع في هولندا على يد **هانز ليبرس** ـ من مرصده لأول مرة إلى السماء عام ١٦٠٩م، فانتابته الدهشة عندما وجد نفسه أمام نظام كوبر نيكوس الفلكي الذي ينص على أن الشمس هي مركز مجموعتنا الشمسية وليست الأرض. كما رأى جاليليو أربعة أقمار تدور حول كوكب المشتري واستطاع أن يراقب كوكب الزهرة فرأى أنه يظهر وجهاً كامل الإضاءة عندما يكون قريباً من الشمس، وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها على أساس نظام بطليموس بل بالإمكان تعليلها وفقاً لنظام كوبر نيكوس الذي يقضي بأن يدور كوكب الزهرة حول الطرف القصي من الشمس، وبذلك أيد جاليليو نظرية كوبر نيكوس الفلكية.

أما **إسحاق نيوتن** (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م) فقد قدم العديد من النظريات

الفيزيائية للعالم وقد اقترن اسمه بقوانين الحركة وقانون الجاذبية العام، وقد قدم أفضل إنتاج له خلال ثلاث سنوات بين سن الثالثة والعشرين والسادسة والعشرين، إذ أكتشف قوة التجاذب بين كل الأجسام في النظام الشمسي ثم أكد أخيراً أن حركة الكواكب كلها خاضعة لهذا القانون.

وضع نيوتن عدة قوانين في علم البصريات، وقوس القزح، كما فسر أيضاً سبب المد والجزر وانتفاخ الأرض عند خط الاستواء، وتحديد الاعتدالين، أضف إلى ذلك أنه وضع أسس فيزياء الحركة حسب المفهوم النيوتني.

كما أثبت نيوتن أيضاً أن الجاذبية قوة كونية، «**إن كل جسمين تجذبهما قوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما، وتقل عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما**»، وقد أوضح نيوتن أن هذه القوة موجودة في جميع الأجسام أكبر كلما كانت قوة الجذب أكبر، فسلسلة الجبال البعيدة والصخور التي في باطن الأرض، كلها تمثل قوة جذب تؤثر علينا، كما يجب إضافة هذه القوى لنصل إلى محصلتها Resultante وهوما نطلق عليه الوزن.

أخيراً أكد نيوتن أن الأرض كروية تتحرك كما لو كانت كل الكتل قد جمعت في نقطة واحدة في المركز، فأطلق عليها اسم مركز الجاذبية وبعد ذلك تمكن من ربط قوى الجاذبية على سطح الأرض بقوى الجذب القائمة بين الأرض والقمر، ومن ثم بين باقي الأجسام الفضائية الأخرى.

نشرت أبحاث نيوتن ونتائجها في كتاب عنوانه الأصول Principles أو **الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية**[(١)].

ماذا بعد ثورة (كوبر نيكوس)؟

.. مما لا شك فيه أن طموح العلماء لا يقف عند حد وهذه صفة حميدة في الإنسان يحبها اللّه سبحانه، فقد رفع اللّه سبحانه العلماء المؤمنين درجات كبيرة وحث الإنسان على العلم والتعلم، وترك سبحانه للإنسان أبواب السماء مفتوحة ليدخل فيها ويتعرف إلى قدرة اللّه سبحانه في خلقه

(١) موسوعة الكون والفضاء والأرض د. موريس أسعد شربل د. رشيد فرحات.

لهذا الكون العظيم بسمواته السبع وبملیارات مجراته ومئات مليارات المجموعات الشمسية والنجوم والكواكب والأقمار.

يقول تعالى:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾.

[سورة الرحمن، الآية: ٣٣]

وهذه دعوة من اللّه سبحانه للإنس والجن أن ينفذوا إذا استطاعوا من أقطار السماوات والأرض وكذلك هناك دعوة أخرى من اللّه سبحانه للتفكر في خلق السماوات والأرض يقول تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

[سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١]

ومن تيسير اللّه سبحانه لعباده على الأرض وما خلق فيها ما يساعدهم على الصناعة والتصميم واختراع الآلات، ولقد استطاع الإنسان وبعد صبر طويل أن يخترع تلسكوبات متطورة بعدسات كبيرة جداً استطاعت رصد نجوم السماء القريبة وتعرفت إليها وأعطتها أسماء متعددة، وكذلك استطاعت رصد كواكب المجموعة الشمسية الأحد عشر بعد اكتشافهم لكوكب إكس وكوكب زيتا وقدرت الأبعاد وحددت الأحجام.. وتوصلوا بهذه التلسكوبات الكبيرة إلىٰ رصد مجرة درب التبانة والتي تحوي حسب آخر اكتشاف رصد لتلك المجرة أن فيها ما يقرب من ٤٠٠ أربعمائة مليار نجم..

وبعد هذا الرصد الفلكي الأرضي بواسطة التلسكوبات استطاع الإنسان أن يتوصل إلى تصميم أول سفينة فضائية (أبولو) وبعد محاولات عدة وصلت إلى القمر وعلى متنها ثلاثة ركاب من البشر وكان ذلك عام ١٩٦٨م وكان أول إنسان حط قدمه على القمر (أرمسترونغ) أمريكي الجنسية.. وبعد هذه المحاولة لم تتم أي محاولات لإرسال سفينة فضائية على متنها بشر إلى أي من كواكب المجموعة الشمسية، وكان من البدهي إرسال سفينة فضائية بالبشر

إلى أي من كواكب المجموعة الشمسية بعد النجاح بالوصول إلى القمر . . . وإياك أن تظن أن الدول الفضائية أي التي كان لها السبق في ارتياد الفضاء لم تحاول إرسال مركبة فضائية مأهولة بالبشر إلى أحد كواكب المجموعة الشمسية أو لم تتم دراسات حول هذا الموضوع . . لقد قامت الدراسات في وكالات الفضاء العالمية كوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) ووكالة الفضاء الفيدرالية (الروسية) ووكالة الفضاء الأوروبية ESA ولكن كل هذه الدراسات أكدت أن هذا شبه مستحيل على الأقل في الوقت الحاضر . . فالقمر يبعد عن الأرض مسافة صغيرة ٢٨٤ ألف كم ولكن كواكب المجموعة الشمسية بعيدة وأقربها إلى الأرض عطارد يبعد (٧٧ مليون كم) وأبعدها الكوكب المكتشف أخيراً (زينا) يبعد ١٠ عشرة مليارات كم هذا ولا زلنا ضمن المجموعة الشمسية التي تتبع لها الأرض التي نعيش عليها . . فكيف تصل السفينة الفضائية إلى أقرب الكواكب عطارد ولم يستطع العلماء إيصال سرعة السفينة الفضائية إلى أكثر من ٢٢ كم في الدقيقة أي ٢٢ × ٦٠ = ١٣٢٠ كم في الساعة × ٢٤ = ٣١٦٨٠ ألف كم في اليوم × ٣٦٥ = ١١,٥٦٣,٢٠٠ في السنة أي تحتاج السفينة للوصول إلى أقرب الكواكب إلينا إلى سبع سنوات . . فإذا قلنا : إن طاقم السفينة الفضائية المتوجهة إلى كوكب عطارد أقرب الكواكب سيكون ثلاثة أشخاص فقط فهذا يعني أنك بحاجة إلى تأمين معيشة طاقم السفينة المؤلف من ثلاثة أشخاص لمدة سبع سنوات من طعام وماء واحتياجات أخرى وحمل كل ذلك في السفينة، وهذا بالطبع من المستحيلات هذا غير ما يمكن أن تتعرض له السفينة وطاقم السفينة من المخاطر الكثيرة وهم على متن السفينة، من فقدان الاتصال بالأرض أو تعطل السفينة أو اصطدامها بشيء في السماء، غير الحالة النفسية السيئة التي سوف يكونون عليها وهم يسبحون في هذا المجهول المظلم إلى غيره من المخاطر الجسيمة.

. . . ولكن هذا لم يمنعهم من إرسال السفن الفضائية غير المأهولة إلى أفراد المجموعة الشمسية بل وصلت سفنهم الفضائية غير المأهولة (بإذن الله تعالى) مالك الملك ومالك السموات والأرض إلى زحل وعطارد والمريخ والمشتري والزهرة وغيرها، وقامت بدراسات حول هذه الكواكب جميعاً، والآن تسير السفن الفضائية غير المأهولة إلى كواكب المجموعة الشمسية الأبعد وهي

أورانيوس ونبتون وذلك لدراستها ومعرفة إذا كان يوجد عليها حياة من أي شكل كان أو لا يوجد عليها مثل باقي كواكب المجموعة الشمسية التي وصلوا إليها ولم يجدوا عليها أي أثر لحياة، وإن شكوا في وجود أثر للحياة على سطح كوكب المريخ، ولقد أرسلت أكثر من سفينة إلى هذا الكوكب وحطت على أرضه وقامت السفينة بما تحمله من معدات متطورة جداً في أخذ عينات من سطح الكوكب وفي تصوير مساحات شاسعة من الكوكب، ولا يزال العلماء حتى هذه الساعة بين نفي وإثبات حول وجود حياة على سطح هذا الكوكب.

. . . وهذا عن حال الأرض وكواكب المجموعة الشمسية فماذا عن حال المجرة التي تنتمي إليها مجموعتنا الشمسية؟ أي ماذا عن خارج حدود مجموعتنا الشمسية. . . يقول علماء الفلك: إن أقرب نجم إلينا خارج حدود مجموعتنا الشمسية واسمه (قنطاريوس) يبعد عنا ٤,٥ أربع سنوات ونصف ضوئية والثانية الضوئية تعادل (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف كم فتصور الساعة الضوئية واليوم الضوئي والسنة الضوئية، وكي نقرب الأمر إلى الأذهان. . نقول: إذا أردنا أن نصل إلى هذا النجم الذي هو أقرب نجم إلينا خارج حدود مجموعتنا الشمسية فإننا بحاجة إلى مليون سنة بسرعة السفن الفضائية الحالية والتي تقدر سرعتها بـ ٢٢ كم في الدقيقة الواحدة. . وهذا عن أقرب نجم إلينا فماذا عن النجم الذي يليه ثم يليه حتى نصل إلى أبعد نجم في مجرتنا درب التبانة؟ وماذا إذا خرجنا من حدود مجرتنا درب التبانة إلى المجرات الأخرى كمجرة ماجلان ومجرة أندروميدا وغيرهما التي تبعد آلاف وملايين السنوات الضوئية عن مركز الأرض، ولقد اكتشف التلسكوب الشهير هابل التابع لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا في عام ٢٠٠٤م مجرة وهي الأبعد حتى هذه الساعة والتي تبعد عن مركز الأرض (١٥) خمسة عشر مليار سنة ضوئية. . . تصور هذا البعد الهائل وقارن بين أقرب نجم إلينا خارج حدود المجموعة الشمسية (قنطاريوس) والذي يبعد عن مركز الأرض فقط ٤,٥ سنة ضوئية والذي من المستحيل الوصول إليه إذ يحتاج إلى مليون سنة بسرعة السفن الفضائية الحالية وبين أبعد مجرة مكتشفة حتى الآن والتي تم تصويرها بواسطة التلسكوب هابل والتي تبعد (١٥) خمسة عشر مليار سنة ضوئية ـ وصدق اللّه سبحانه:

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

وحينما أدرك علماء الفلك في كل أنحاء العالم من الدول الفضائية استحالة الوصول ليس إلى أبعد مجرة ولكن إلى أقرب نجم في مجرتنا عمدوا إلى دراسة هذا الكون العظيم عن طريق التلسكوبات المتطورة والتي ستتطور مستقبلاً، وفعلاً وصلت هذه التلسكوبات المتطورة إلى الغوص في مجاهل هذا الكون العظيم، وقد ذكرنا أن التلسكوب هابل استطاع في عام ٢٠٠٤م اكتشاف المجرة الأبعد في الكون وتم تصويرها، وهي تبعد ١٥ خمسة عشر مليار سنة ضوئية وأمام هذا البعد الهائل لم يبق أمام العلماء إلا دراسة هذا الكون ووضع النظريات حوله.. حول نشوئه وبدايته وتكوين النجوم والكواكب والمجرات، وخرجت عشرات النظريات حول هذا الموضوع وكلها تبدي رأيها حوله وعلى الرغم من تعدد النظريات إلا أن خيطاً يجمع بينها جميعاً وهو أن لهذا الكون بداية وهي لحظة الانفجار الكبير وسموه علمياً Big Bang بيج بانج أي الانفجار الأعظم أو الانفجار الكبير، وهو أن قوة هائلة كانت متجمعة في نقطة انفجرت انفجاراً كبيراً تباعدت ذراتها عبر هذا الكون السحيق وعبر ملايين السنين وقد تشكل من هذا الانفجار النجوم والكواكب والأقمار والمجرات الهائلة والتي يبلغ أعدادها بالمليارات، ويبلغ أعداد نجوم كل واحدة منها بمئات الملايين والمليارات انتشرت في هذا الفضاء السحيق الذي لا يعرف منتهاه إلا خالقه، وفي هذا قال علماء الفلك: إن هذا الكون بمجراته الهائلة في تمدد واتساع منذ أن تمت عملية الانفجار الكبير إذ إن النجوم تتشكل عبر ملايين السنين، وقد قدروا عمراً لنشوء الكون وهو ما بين ١٢ ـ ١٥ مليار سنة، وإن كانت أكثر النظريات شيوعاً أن عمر الكون هو (١٣,٥ مليار سنة).

فالعلماء إن استطاعوا بما هيأ اللّه سبحانه لهم من مواد لصناعة أدوات ومركبات فضائية وتلسكوبات استطاعوا بها أن يسبروا أغوار الكون، ووضعوا من خلال هذا السبر النظريات المتقدمة في نشأة الكون وخلق السماوات بمجراتها وعمر الكون وبدايته ذلك أن هذه التلسكوبات المتطورة جداً ساعدتهم في رؤية هذه المجرات السحيقة البعد والقريبة والمتوسطة البعد..

كذلك هبوط المركبات الفضائية على سطح بعض الكواكب كالمريخ وغيره وأخذ عينات من تربتها ساعدتهم في دراسة هذا الكوكب بدايته ونشأته ونشأة تلك النجوم والكواكب وأقمارها.. إذاً هناك شيء ملموس استطاعوا من خلاله وضع نظرياتهم وافتراضاتهم وإن كان هناك ما يزيد على ٥٠٪ من احتمال خطأ تلك النظريات والآراء والافتراضات التي يضعونها وربما أكثر من ٥٠٪ وقد تصل نسبة احتمال الخطأ إلى ٧٠ و٨٠٪ ذلك أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٥]

ذلك أن بعد المجرات والنجوم الهائل تبعد نسبة صحة هذه النظريات.. وقد قدمنا أن التلسكوب هابل اكتشف المجرة الأبعد في الكون حتى الآن والتي تبعد عن الأرض خمسة عشر مليار سنة.. وما يدريك أن يتضاعف بُعد بعض المجرات التي سوف يكتشفها الإنسان وتكون هناك مجرات تزيد في أبعادها إلى مئات المليارات من السنوات الضوئية وربما أكثر وربما تنتهي هذه الحياة على الأرض ولا يكتشف الإنسان إلا النذر اليسير يقول تعالى:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

ويقول الحق تعالى:

﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ١٣]

فإذا قلنا ورغم كل هذه الاكتشافات الكونية والتأكيدات على صحتها لا نزال نحبو في معرفة هذا الكون نشأته وبدايته.. فأنى لنا أن نعرف كيف تكون نهايته، وفي هذا الجزء قدَّمنا فقرات ونظريات العلماء حول توقعاتهم عن نهاية الكون ومنها نظريتان، الواحدة تقول بنظرية الكون المستقر والأخرى تقول بنظرية الكون الهزاز، فأما نظرية الكون المستقر فتقول: إن الكون مستقر وليس له بداية ولن تكون له نهاية وما يموت من النجوم يولد غيرها وكذلك المجرات تماماً مثلما يموت أناس على الأرض ويولد غيرهم، وأما نظرية الكون الهزاز (المهتز)

فتقول بنهاية الكون ولكن بعد حوالي ١٢ ـ ١٥ مليار سنة بنفس المدة الزمنية التي مرَّت على نشوئه وبدايته. . معنى ذلك أن نهاية الكون وقيام الساعة ستكون بعد ١٢ ـ ١٥ مليار سنة وستبقى البشرية على الأرض تموت وتولد إلى هذه المدة الكبيرة من ١٢ ـ ١٥ مليار سنة، وهذا كلام يفوق الخيال ويفوق قدرة الإنسان وهو يخالف حقيقة وجود الإنسان على الأرض، ويخالف ما وعد اللَّه سبحانه به عباده على الأرض من قرب قيام الساعة ونهاية الكون.

يقول تعالى:

﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا * إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾.

[سورة المعارج، الآيات: ٥ ـ ٧]

وهناك نظرية ثالثة تقول بنظرية الكون المغلق أي بعودة الكون إلى ما كان عليه في بداية نشوئه وخلقه.

والحقيقة أن الإنسان ومهما تطور ولو بعد مئات السنين فإنه لن يصل إلى علم حقيقي لبداية الكون ونهايته. . وخاصة نهايته فهذا الأمر بيد اللَّه سبحانه وهو وحده القادر عليه. . فإذا كان العلماء استندوا إلى امتداد عمر الكون إلى أكثر من ١٢ مليار سنة ذلك لتوقعهم بوجود المادة الفعالة في كل نجم لاستمرار حياته إلى هذا الزمن من هيدروجين ونتروجين وغيرهما فإن اللَّه الذي أوجد هذه المادة التي تخلق النجم وتبقى فيه لاستمرار حياته يلغيها متى يشاء ويوقف الحياة في كل هذا الكون وهذا صريح بنصوص الآيات الكريمة التي نتعرض لها في هذا الجزء كقوله تعالى:

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

وقد أقسم اللَّه بذاته العلية أن يوم القيامة قائم وأن اللَّه سيبعث من يموت من البشر ويجمعهم ليوم لا ريب.

يقول تعالى:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾.

[سورة التغابن، الآية: ٧]

ومع فقرات هذا الجزء من الموسوعة لنتعرف إلى نشأة الكون ونشأة الحياة على الأرض ونهاية الكون ثم الموت ونهاية الحياة على الأرض كما قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٢٧]

وطالما أن هذا الجزء بعنوان (آيات اللّه في الموت ونهاية الكون) فقد قدَّمنا الحديث عن الموت وعالم البرزخ قبل الحديث عن نهاية الكون وانتهاء الحياة مع نهايته، وقد بين اللّه سبحانه لنا في كتابه الكريم أن كل شيء هالك سواء كان جماداً أو روحاً فالجماد يجري إلى أجل مسمَّى وكل نفس ذائقة الموت.

الباحث

د. ماهر أحمد الصوفي

الفصل الأول

عالم الموت
وعالم البرزخ وزمنه

١ ـ الموت ـ ما الموت؟ وكيف يموت الإنسان؟

٢ ـ هل الموت فناء للإنسان؟

٣ ـ أشكال وأنواع الموت.

٤ ـ لحظة الموت بشارة للمؤمن وحسرة على الكافر والعاصي.

٥ ـ ما بين الموت والبرزخ (القبر).

٦ ـ عالم البرزخ وزمنه من الموت وحتى نفخة البعث.

٧ ـ المدة الزمنية التي يلبثها الميت في برزخه.

٨ ـ هل يحس الميت بالزمن في عالم البرزخ؟

الموت.. ما الموت؟.. وكيف يموت الإنسان؟

هو بلغة المنطق خروج الروح من الجسد بأمر اللّٰه سبحانه وحده، ولم يعط أحداً من خلقه هذا الحق.. فالأمر من اللّٰه سبحانه والتنفيذ من الملائكة الذين اختصهم في قبض الأرواح.

هذه سنة اللّٰه سبحانه في خلقه ومنذ أن خلق آدم عليه السلام وحتى يوم القيامة... وهذا (الموت) لن تجد له البشرية أي مخرج، ولن تستطيع منعه مهما أوتيت من علم ومعرفة، ومهما وصلت طبياً وتشريحياً إلى معرفة أسرار الجسد حتى لو وصلت يوماً إلى فك رموز الجينات البشرية (DNA) ومعرفة خرائطها التكوينية.

فاللّٰه سبحانه أعطى العقل البشري حدوداً في العلم قد تصل إلى أعلى وأرقى بكثير من المستوى الذي وصلت إليه الآن، على الرغم من انبهارنا لما نراه من اكتشافات علمية وعلى كامل أصعدة الحياة المادية.

... ولكن في النهاية يبقى العقل ضمن حدود (العقل البشري) المجهز بإمكانيات مسبقة من اللّٰه سبحانه.. وهو أعلم بحدوده العليا وأنه يتوقف عند حدود الهرم والموت، وليس له من دونهما حيلة أو مخرج ولن يستطيع إبطالهما أو إلغاءهما أو حتى معرفة أسرارهما.. فالخلية (النطفة) مبرمجة في أساس الخلق على مراحل النمو والتطور ثم الهرم والموت.. مثلما بُرمج كل قانون في هذه الحياة وهذا الكون كله.. فالهواء مثلاً برمج على نسب معينة من الأوكسجين والهيدروجين والكربون بما يلزم للحياة، أو قل حياة الإنسان على الأرض والبشرية مجتمعة لا تستطيع ولا تملك حيال تغيير النسبة المقررة مسبقاً من الخالق حولاً ولا قوة... وما ينطبق على مثال الهواء ينطبق على مثال الماء، والتراب.. والأمثلة في هذا الأمر كثيرة.

فكل أمر مهما كبر أو صغر هومن سنة اللَّه لا يتبدل ولا يتغير حتى يرث اللَّه سبحانه الأرض ومن عليها . . . والدليل هذا التاريخ الطويل للبشرية التي لم تستطع من خلاله أن تغيّر أو تحول أو تبدل من سنة اللَّه شيئاً، وقد بين سبحانه أمره وإرادته في هذه الحياة التي تعيشها البشرية منذ أن خلقها وإلى أن يرث الأرض ومن عليها يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٣٨]

وقال تعالى:

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٨٥]

وقال تعالى:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٦٢]

وإذا قلنا: إن البشر لم يصلوا فيما مضى من تاريخ حياتهم إلى ما وصلوا إليه في العقود الثلاثة الماضية من تطور علمي مذهل فقد استطاعوا أن يصلوا إلى الخلية وبعض علمها، مما أوصلهم إلى استنساخ نعجة دون استعمال الحيوان المنوي والمعروفة باسم (النعجة دولي) وكذلك فإنهم استطاعوا أن يصلوا إلى علم المورثات والذي من خلاله قد يصلون إلى كشف جميع الأمراض المستعصية. . كالسرطان. . والإيدز. . والأنفلونزا. . إلخ[١].

ونحن بدورنا نقول: إن البشرية وفي خلال العقود القادمة ستصل إلى أبعدَ من هذا بكثير، وليس هنالك سقف محدود لتلك العلوم وتلك الاكتشافات الكونية، ولكن في النهاية تبقى في حدود ما أراد اللَّه سبحانه وما شاء، إلى جانب أن القدرات الإنسانية أخيراً لها طاقة

(١) كتابنا الاستنساخ البشري بين الحقيقة والوهم.

معلومة فالعلم ليس له حدود. . ولكن الإنسان ذاته له حدود معرفية يتوقف عندها تماماً.

قال تعالى:

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

ومع ذلك فإن هناك إشاراتٍ قرآنيةً كريمة تشير إلى أن الإنسان سيصل قبل يوم القيامة إلى علم وازدهار كبيرين من خلال العقل البشري المخلوق بقدرة اللّه سبحانه.

وإذا عدنا إلى الإنسان وجسده وقدراته المستقبلية على التحكم بهذا الجسد نقول أيضاً: إن العلم قد يصل إلى فك رموز هذا الجسد بالكامل، وربما يتحكم به تحكماً دقيقاً، ولم يعد أمام العلم حاجز يمنع من الوصول إلى أسراره الدفينة، إلا أنه عاجز أمام حاجزين: حاجز الهرم وحاجز الموت وأما ما دونهما فإن اللّه سبحانه خلق كل شيء بنظام التضاد، وكل داء له دواء عَرَفه من عرفه وجهله مَن جهله وقد بين لنا رسول اللّه ﷺ هذا الأمر.

عن أبي سعيد رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«**إن اللّه تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله إلا السام وهو الموت**» رواه الحاكم.

فقد قرر رسول اللّه ﷺ. . . أن الإنسان بجهده وعلمه وتعلمه يستطيع أن يصل إلى أعلى مستويات العلم والتِّقنية في جسد الإنسان. . إذ إن اكتشاف الدواء يحتاج إلى دراسة الجسد دراسة مستفيضة، فإذا ما وصل الإنسان إلى دواء كل الأمراض فمعنى ذلك أنه استطاع أن يصل إلى أسرار هذا الجسد. . وأما الحقيقة الثانية فهي أن الإنسان مهما أوتي من العلم وإلى أن تقوم الساعة لن يملك حيال (الموت) مخرجاً ولا دواء ولا مهرباً. . تماماً مثلما قرر رسول اللّه ﷺ في حديث آخر أن الإنسان لا يمكن له أن يعالج أو يكتشف دواء للهرم.

. . . عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«إن اللّه لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء إلا الهرم فعليكم بألبان البقر فإنها ترمُّ من كل الشجر» رواه الحاكم

لأن كل شيء خلقه اللّه سبحانه في الدنيا سواء في الكون أو في الأرض أو في الإنسان، فقد جعل له عمراً افتراضياً،وهذه سنة اللّه سبحانه التي أحكمت والتي لا تملك البشرية حيالها أي تغيير أو تبديل أو تحويل.

قال تعالى:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٦٢]

فالهرم والموت أمران لا مناص للبشرية منهما وهذه السنة الإلٰهية هي الإرادة الإلٰهية بالبشر،لأن الدنيا ليست غاية بل هي وسيلة لما أراده اللّه سبحانه،فالدار الآخرة هي الغاية والهدف من الوجود الإنساني والخلق الإلٰهي على هذه الأرض، لأن مَنزِلَ البشرية الدائم هو الجنة والنار فقط، والدنيا دار ضيافة مؤقتة أو محطة استراحة أو كرجل استظل بظل شجرة وارتحل.

ولكي لا يكون للبشرية حجة على اللّه سبحانه،أرسل لهم الرسل مبشرين برحمة اللّه في الآخرة التي أرادها لهم ومنذرين من فتنة الدنيا،بأن يجعلها الإنسان غاية فيركن لها ويطمئن بها ويسعى إلى شهواتها وملذاتها، ناسياً أو متناسياً أو عامداً أو متعمداً لعدم ثقته بالآخرة وبالعودة بعد الموت، هذا الموت الذي استسلم له الإنسان كحقيقة واقعة أمام عينيه،وابتعد عن الآخرة كحقيقة ليست واقعة تحت عينيه،ونَتاج هذا عدم ثقته باللّه سبحانه،وبأنه سيعيده إلى الآخرة مرة أخرى.

ولطالما أن الموت هو النهاية الطبيعية للإنسان فيجب أن يتوقف عنده كل إنسان وقفة مطولة وبتفكير واعٍ وعقل راجح لأن أي إنسان ومهما كان معتقده يسأل دائماً نفسه هذا السؤال: ماذا بعد الموت؟ فإن كان مؤمناً فسيكون جوابه يقيناً بالعقل أنه سيعود إلى اللّه سبحانه، يقول تعالى على لسان الكافرين يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

[سورة الملك، الآية: ١٠]

فقد نفى اللّه سبحانه العقل والسمع عن كل إنسان كان من أصحاب السعير... والذي سيكون مصيره السعير يوم القيامة لا بد أنه لم يسأل نفسه في يوم من الأيام ماذا بعد الموت؟ ولو سأل لوصل إلى الحقيقة... ولنجا وأفلح وفاز.. لأنك لو سألت ماذا بعد الموت؟ أعددت نفسك لهذا الأمر الجلل إعداداً جيداً يقيك حر السعير ونار جهنم.

هل الموت فناء للإنسان؟؟

الحقيقة أن اللَّه سبحانه لم يخلق الإنسان للفناء بل خلقه للديمومة الأبدية، وليس الموت بفناء طالما أن النفس والروح باقيتان تعودان لخالقهما.

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

[سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠]

فليست العودة إلى اللَّه سبحانه فناء، بل هي انتقال مرحلي من حياة إلى حياة أخرى. . وهذا الفاصل بين الحياتين أخفي عنا وبقي علمه موقوفاً على اللَّه سبحانه.

وهذه الحقيقة هي أول الحقائق التي يجب أن يدركها الإنسان وهي أن اللَّه سبحانه لم يخلقه من أجل أن يعيش حياته الدنيا بحلوها ومرها وسعادتها وشقائها ثم يموت إلى ما لا نهاية ويطويه الزمن السرمدي. . . . بل ليعد نفسه ويطيبها ويزكّيها لتكون في أعلى عليين لا في أسفل سافلين، فإذا لم تتمثل هذه الحقيقة في ذهن الإنسان فقد أنقص اللَّه سبحانه قدره وظن العبث واللَّهو باللَّه وحاشى للَّه سبحانه أن يعبث وهو القائل في محكم كتابه:

قال تعالى:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

[سورة المؤمنون، الآية: ١١٥]

وقال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآيتان: ١٦ ـ ١٧]

وهاتان آيتان من اللَّه سبحانه، تؤكدان أن اللَّهو والعبث واللعب في خلق

الإنسان والسموات والأرض منفيٌّ عنه سبحانه وتعالى.

وقد أثبت تعاقب الأجيال أنه لا مناص من الموت، ومهما كان أمر هذا المخلوق (الإنسان) لا ينفعه ولا يشفع له منصب ولا ولاية، ولا مال، ولا جاه، ولا سلطان ولا رجال، ولا يملك أحد حيال موت أي أحد شيئاً وفي هذا تحدث اللّه سبحانه في كتابه الكريم.

قال تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٨٦ ـ ٨٧]

وتأكيداً لهذا الأمر، وأنه لا عصمة لأحد من الموت حتى لو ملك البروج المشيدة وأقام فيها.

قال تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٧٨]

وقد أوحى اللّه تعالى إلى الرسول ﷺ أنه ميت كما مات من قبله من أنبياء اللّه تعالى، لم يستثن منهم أحداً، وإن أجل عمر أحدهم إلى حين، كما أجل عمر نوح عليه السلام، فبلغ أكثر من تسعمائة وخمسين عاماً ثم قبضه إليه.

قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٤]

وكانت الآية التي تليها قانوناً وسنة إلٰهية خالدة لا مناص منها.

فقال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٥]

فالموت أمر واقع لا مَفَرَّ منه فهو ليس من علم الغيب.. بل حقيقة مرئية أمام أنظارنا نشاهدها مئات المرات في حياتنا الدنيا ونشاهدها في أقرب الناس إلينا.

. . . إذاً التسليم للموت أمر عقلي منطقي سليم، مَن أنكره وظن أنه ناجٍ منه دون الخلق، فإن في عقله مسًّا من الجنون وعدم الأهلية الإنسانية.

والموت في طبيعته التي عرفناها على تصورات عدة بالنسبة لخلق اللّٰه تعالى فمنهم من يحبه ويتمناه ويستعجله، ولا يريد أن يطول مقامه في الدنيا، أملاً باللّٰه سبحانه والرجوع إليه ومحبة وطمعاً وخوفاً منه. . وأولئك هم الطائعون العابدون القائمون، ومنهم من يداعبه الأمل بطول الأجل، وهم أولئك الذين يخلطون العمل الصالح بآخر سيئاً ومنهم من رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها فهو لا يريد سوى فتنتها وشهواتها وزينتها ولا يرجو لقاء اللّٰه سبحانه.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

[سورة يونس، الآيتان: ٧ ـ ٨]

ومنهم من يكره الموت كرهاً عظيماً بما قدمت يداه من سوء وظلم وفحش، وضرب اللّٰه سبحانه لنا مثلاً لذلك باليهود وهم القوم المغضوب عليهم.

قال تعالى:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

[سورة الجمعة، الآيتان: ٦ ـ ٧]

أشكال وأنواع الموت

الموت واحد وهو خروج الروح من الجسد لأي سبب كان.. سواء من وقوف خثرة دموية في بوابة القلب مع سلامة الجسد، أو من هرم وعجز أو من حادث أو مرض أو انتحار أو قتل أو شهادة، فإذا خرجت الروح من الجسد فقد الإنسان الحياة مهما كان وضعه الجسدي.

... ولكن قضت حكمة اللَّه سبحانه أن تختلف الطريقة التي يموت بها الإنسان، وهي طرق لا حصر لها، واختلاف طرق الموت هي في المؤمن كما هي في الكافر، وكما هي في العاصي هي في الطائع.. وإذا تأملت في ذلك تجد أن فيها حكمةً من عليم خبير.. فلو أن اللَّه سبحانه جعل طريقة الموت في المؤمنين واحدة، تشملها جميعاً الرحمة كأن يموتوا وهم نائمون، أو فَجأة وهم جالسون دون إحساس من مرض أو ألم لا يدركون أو يحسون بفظاعة الموت.. وجعل طريقة الموت في الكافرين شنيعة فظيعة كالحرق والفتك والقتل والدهس لكان هذا من إظهار الغيب، وهذه الحال تشبه تحديد (الرزق) بأن يكون مثلاً للمؤمن دون الكافر أو للكافر دون المؤمن فيؤمن الناس أو يكفرون من أجل الرزق، وكذلك فإن الإنسان قد يؤمن فقط من أجل أن يموت مِيتة هينة ولا يموت مِيتةً مشؤومة، لذلك جعل اللَّه سبحانه ظاهراً ميتة السوء في المؤمن كما هي في الكافر وكذلك جعل الميتة الهينة اللينة في المؤمن كما هي في الكافر... وقلت ظاهراً لأن هذا ما يظهر للعيون من واقع قدرتها على الرؤية، لذلك جاءت الآية الكريمة لتوضح أن اللَّه سبحانه هو أقرب لموت أحدنا مِنْ أنفسنا ونحن بجوار الحي الذي سيموت ليعلمنا اللَّه سبحانه أننا لا نرى إلا ظاهر الأشياء. يقول تعالى:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

[سورة الواقعة، الآية: ٨٥]

فربما نرى ظاهر الموت في فلان عذاباً، وحقيقته رحمة، وقد يكون ظاهر الموت في فلان رحمة وهو عذاب. . . فقد نرى كافراً أو فاسقاً يموت على سريره كما تنام العروس في خدرها، ولكن عذاب اللّه سبحانه فيه أخفاه عنَّا لئلا يظهر غيبه على أحد، يقول تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٩٣]

وفي مقابل هذا نجد أن اللّه سبحانه يخاطب النفس المؤمنة الطاهرة حين موتها بقوله:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

[سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨]

حتى ولو كان ظاهر موت المؤمن عذاباً أو قتلاً أو حرقاً أو غرقاً أو استشهاداً وعلى هذا فالشهيد ميت أمام أعيننا، حي بِعلم اللّه تعالى، وهذا هو الفرق بين قدرة الإنسان على الرؤية وقدرة اللّه في غيبه وعلمه.

ـ ولكن ما قلته ليس كل شيء. . قلنا: إن هناك ظاهراً كشف لنا وباطناً أخفي عنا. . فالأحاديث الشريفة تشير إلى أنه إذا شدد على المؤمن في موته فهو كفارة لذنوبه، وأنه إذا قضى اللّه سبحانه له بالقتل أو الحرق أو الغرق فقد أو جب له الشهادة الصغرى وليست الشهادةَ الكبرى، والتي لا تكون إلا في ساحة القتال وفي سبيل اللّه تعالى فإذا مات المؤمن غرقاً فهو شهيد كما دلت عليه الأحاديث الشريفة، ولكنه يغسل ويكفن ويُصلى عليه ويكون حياً، قال اللّه سبحانه عن الشهداء:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]

ولكنه يُعطى أجر الشهيد لما ناله من عذاب في موته، كالذي يموت بداء البطن أو مدافعاً عن ماله وعرضه وشرفه، والأحاديث الشريفة تؤيد هذا الكلام وتتضافر معه.

ومع هذا فإن رسول اللّه ﷺ دلنا من خلال الأحاديث الشريفة أن

المؤمن من الممكن أن يقي نفسه مِيتة السوء ظاهراً، بأعمال أو صانا بها في الدنيا ومؤداها صنائع المعروف.

. . . عن أنس رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».

رواه الحاكم في المستدرك.

وفي مقابل هذا فإن صدقة السرِّ يبتغي بها صاحبها وجه اللّه تعالى فإنها تطفئ غضب اللّه سبحانه على عبده فتقيه مصارع السوء أيضاً.

. . . عن عبد اللّه بن جعفر وعن أبي سعيد رضي اللّه عنه قالا: قال رسول اللّه ﷺ:

«صدقة السر تطفئ غضب الرب».

رواه الطبراني في المعجم الصغير.

ومن الشهادة (القتل) دفاعاً عن النفس والمال والعِرض والقتل مِيتة بشعة لأن شهداء هذه الأمة جم غفير.

عن سعد بن زيد رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ

«من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه.

. . . وليس الشهيد في الإسلام من قتل دون دمه وماله وأهله فحسب بل أوجب رسول اللّه ﷺ الشهادة للمؤمن في حالات أخرى نستبينها في الحديث الشريف.

عن جابر بن عتيك أن رسول اللّه ﷺ قال:

«الشهادة سبع سوى القتل في سبيل اللّه: المبطون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمْع شهيد».

أخرجه ابن حبان في صحيحه.

وهكذا فإننا نجد أن الموت ليس له قاعدة لا في العمر ولا في النوع ولا في المؤمن ولا في الكافر ولا في عاص، سنةَ اللّه في هذا الكون وهذا الخلق ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً إلى أن يرث اللّه سبحانه الأرض ومن عليها، وليست هذه السنة الإلٰهية بالعشوائية، إنما من علم اللّه المطلق في كامل خلقه وقد بين اللّه سبحانه لنا أمره وإرادته في خلقه في كتابه الكريم.

لحظة الموت بشارة للمؤمن وحسرة على الكافر والعاصي

. . .يتلقى (ملك الموت) عليه السلام الأمر من اللّه سبحانه بقبض روح فلان ابن فلان في اليوم والساعة وأجزاء الثانية حسب علم اللّه. . وملك الموت من إعلام اللّه سبحانه، يعلم من هو المقبوض وما درجة إيمانه وصلاحه أو كفره وعصيانه.

قال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

[سورة السجدة، الآية: ١١]

فهي لحظة حاسمة في حياة الإنسان بعد أن انتهى زمن تكليفه فهو إمَّا أن يفلح وإلى الأبد وإما أن يخيب وإلى الأبد، ولحظة الموت من أعسر لحظات حياة الإنسان الأخيرة بعد أن تركه اللّه سبحانه وعلى مدى سبعين أو ثمانين سنة يفعل ما يشاء والآن جاء دور الحساب وأوله لحظة الموت، فهي بشارة عظيمة كما يقول اللّه تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾.

[سورة فصلت، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢]

فالملائكة تتنزل بأمر اللّه سبحانه لتبشر المؤمن في لحظة النزع والموت، بعد أن يفتقد الذي يُحتضر القدرة على الكلام، ويكشف اللّه سبحانه عنه بعض الحجاب، فيريه من آياته وهم الملائكة الذين أرسلهم ليبشروه، وكذلك فإن الملائكة تتنزل على المؤمنين من أهل الاستقامة في قبورهم

وبعثهم وحشرهم وفي جميع مراحل عالم البرزخ حتى يلقوا ربهم يوم القيامة، وبأمر الله سبحانه تقول الملائكة لهم كما في تفسير الآيات الكريمة: لا تخافوا مما ستقدمون عليه من عالم البرزخ والآخرة، ولا تخافوا على ما خلفتم في دنياكم من الزوج والولد، فإن الله سبحانه وليكم ووليهم، وبعد هذه الطمأنينة يبشرونهم بالجنة التي وعدهم الله سبحانه بها، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لهم ما يشاؤون فيها وعند الله المزيد خالدون فيها مخلدون وعد الله حقاً إنه لا يخلف الميعاد.

وأما الكافر والفاسق والعاصي وكل من أتى الله سبحانه على غير دين الإسلام فإن لحظة موتهم لحظة العذاب والإهانة والضرب. . وهنا علم الله وقدرته، ينال الكافر والعاصي هذا العذاب في لحظة الموت دون أن يرى أقربُ المقربين إليه شيئاً أو يحس أو يدرك هذا العذاب، وهذه الإهانة غير مرئية لأنها من غيب الله الذي أخفاه عنا ولو أظهره لنا لآمن الناس لأنهم رأوا ما لم يعد غيباً، ولا فضل لهم يومئذ بإيمانهم لأنهم آمنوا لما رأوا العذاب، والفضل كل الفضل لمن آمن بقدرة الله وغيبه الذي يوصله إليه عقله بما أودع الله سبحانه من آياته في هذا الإنسان وفي هذا الكون العظيم، يقول تعالى عن لحظة موت هؤلاء الفاسقين الظالمين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

[سورة الأنفال، الآية: ٥٠]

ويقول تعالى أيضاً عن هذا الموقف العصيب في لحظة الموت:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٩٣]

وهؤلاء أيضاً يكشف الله سبحانه عنهم بعض الحجاب، ليسمعوا ويروا الملائكة الذين يضربونهم ويسمعونهم الكلام الشديد المهين، ليذوقوا في هذه اللحظات عذاباً وألماً ورعباً، وخاصةً من رؤيتهم ملائكةَ العذاب الغلاظ

الشداد الذين لا يعصون اللّه سبحانه ما أمرهم، فتزدحم عليهم الكربات وتغمرهم الشدائد.

ويتمنون لو تنشق الأرض فتبتلعهم إلى غير رجعة ودون قرار.

... وتبدأ حسرات الكفار والعصاة من لحظة الموت عَبْر حسراتهم وعض أناملهم إلى يوم القيامة.. فيسألون العودة إلى دار الدنيا ليعملوا فيها صالحاً كما أمر اللّه سبحانه قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

[سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩ ـ ١٠٠]

لذلك حذرنا اللّه سبحانه في كثير من آياته الكريمة لحظة الموت لأنه لا يمكن لأحد أن يعود إلى الدنيا مرة أخرى (وهذا من غيب اللّه أيضاً)، لذلك نسأل ربنا عز وجل في كثير من دعائنا الصلاح والتقوى والعمل الصالح والإنفاق وأداء الفرائض والإكثار من الصدقات والنوافل لنلقاه وهو راضٍ عنا، تتلقانا الملائكة بالبشرى، ولا تكون حياتنا علينا حسرة.

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ * وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

[سورة المنافقون، الآيات: ٩ ـ ١١]

ومن الآيات الكريمة نستدل على أن الإنفاق في سبيل اللّه سبحانه له أثر عظيم، يظهر ذلك الأثر من لحظة الموت وفي عالم البرزخ ويوم القيامة.

ولنا في هذا المقام حديث، وهو أنَّ الأحياء في ساعة الموت على درجات كثيرة، فليس كل مسلم أو مؤمن تتلقاه الملائكة بالبشرى ويكون من صنف الآية الكريمة ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فالمؤمن على درجات كلما سمت درجته وعلت من واقع إيمانه وعمله الصالح وإنفاقه في

سبيل اللّه تلقته الملائكة بكامل البشرى والتبشير، وكلما قلَّ عمله الصالح قلَّت درجات البشرى، وكثير من المؤمنين العصاة أتوا اللّه سبحانه وهم على معصية، لم يؤدوا ما عليهم من فرائض، ولم يعرفوا للإنفاق في سبيل اللّه طريقاً، ولم يكن لهم من إسلامهم إلا الاسم، ولم يكن لهم من إيمانهم إلا الأماني الكاذبة، لأن الإيمان كما قال رسول اللّه ﷺ:

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«**أفضل المؤمنين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى اللّه عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات اللّه عز وجل**» رواه الطبراني في المعجم الكبير [صحيح].

فهؤلاء ليس لهم بشرى، ولا تتلقاهم الملائكة إلا بضرب وجوههم وأدبارهم، ولا تخرج أنفسهم إلا بذل وإهانة وعذاب، وينالهم ما ينال الفاسق الكافر في لحظة الموت، باستكبارهم على اللّه ورفضهم طاعته وأداء فرائضه وما أمرهم اللّه سبحانه به، واللّه أعلم.

ما بين الموت والبرزخ (القبر)

هذه ساعات العبرة حيث نجد الميت مسجىً على فراشه أو على الأرض جثة هامدة لا حَراك فيها، فقدت البهاء والجمال وتحولت النضارة في الوجه إلى شحوب وتحول الاحمرار إلى صفرة واسوداد لا ماله ينفعه ولا منصبه، وأهله من حوله يبكون لا يستطيعون أن يفعلوا له شيئاً، والطبيب تنتهي مَهمته بالعجز الكلي عن فعل أي شيء. . وكل ما خوَّله اللَّه سبحانه به في الحياة تركه ولم يعد ينفعه بشيء، وصدق اللَّه تعالى إذ يقول:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ٩٤]

فقد انتهت فترة الامتحان التي ترككم فيها اللَّه سبحانه تفعلون ما تشاؤون باختياركم المطلق، واليوم انقطع عنكم أسباب الاختيار وسلمتم الأرواح إلى بارئها، وأما بهاؤكم وجمالكم في أجسادكم فسيتحول إلى جيفة بعد عدة أيام. . وكم من الظالمين وحماتهم الذين يبلغون الآلاف لا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئاً بعد أن كان بإشارة منه يُهرَعون إليه لتنفيذ أمره إمَّا خوفاً منه أو طمعاً في عطاياه، وقد تحدَّى اللَّه سبحانه البشرية كلها في إرجاع ميت واحد إلى الحياة.

قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

[سورة الواقعة، الآيتان: ٨٦ ـ ٨٧]

وفي هذه اللحظات وقبل أن يُغَسَّلَ الميت ويكفَّن يحدثنا رسول اللَّه ﷺ

عمّا يحدث للعبد في تلك اللحظات مبيناً حالة المؤمن الصالح وحالة الكافر والعاصي.

عن البراء بن عازب رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ:

«إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حَنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرةٍ من اللّٰه ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في ـ أي فم ـ السقاء ـ أي بسهولة ورفق ـ فيأخذها ـ أي ملك الموت ـ، فإذا أخذها لم يدعوها ـ أي لم يتركوها ـ في يده طرفة عين حتى يأخذوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على سطح الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيّعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة فيقول اللّٰه تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في علّيين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي اللّٰه فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللّٰه فيقولان له: وما علمك؟ فيقول:

قرأت كتاب اللّٰه فآمنت به وصدقت فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويفسح له من قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح فيقول العبد الميت: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي.

قال رسول اللّه ﷺ: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الآخرة وإقبالٍ من الدنيا نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح (أي الجلود الغليظة) فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخطٍ من اللّه وغضب، قال: فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السَّفُّود (أي حديدة ذات شوك) من الصوف المبلول، فيأخذها ملك الموت، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٤٠]

فيقول اللّه تعالى: اكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٣١]

فتعاد روحه إلى جسده ويأتيه ملكان ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه القبر حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشرْ بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك القبيح يجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: ربِّ لا تقم الساعة»[(١)].

أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

وقد ورد في صحيح مسلم في مثل هذا المعنى:

...عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال:

---

(١) ترغيب المنذري: صفحة ٣٦٨ وأورد هذا الحديث ابن كثير بروايات مختلفة.

«إذا أخرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها ـ قال حماد الراوي ـ: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبل الأرض صلى اللّه عليك وعلى جسد كنت تعمُرينه، فيُنطلقُ به إلى ربه عز وجل ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد ـ وذكر من نَتْنها وذكر لعناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردَّ رسول اللّه ﷺ رَيْطَةً كانت عليه على أنفه هكذا، والريطة هي ثوب رقيق أو الملاءة وفعل ذلك كما هو شأن من شمّ رائحة خبيثة كيف يضع على أنفه ما يمنع تلك الرائحة المستقذرة؟».

عالم البرزخ وزمنه
من الموت وحتى نفخة البعث

هذا العنوان عالم البرزخ هو الهدف من الكتاب أو قل هو أهم جزء من الكتاب.

...لقد تعددت الآراء حول عالم البرزخ من كثير من العلماء والفقهاء والمفسرين القدامى والمحدثين، والسبب الرئيس لهذا التعدد هو كثرة الأحاديث الشريفة حول هذا العالم المجهول لدينا، وهذه الأحاديث الشريفة منها المسند الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف حسب تصنيف علماء الحديث الشريف، لذا نجد بعض الاختلاف حول هذا العالم البرزخي المجهول من حيث تناوله من قبل الباحثين والكتّاب.

ونضيف إلى هذا الاختلاف العلم المحدود والبسيط عن هذا العالم البرزخي، فالمعاينة شيء والكلام شيء آخر وليس الخبر كالعيان، ومهما تحدثنا عن العالم البرزخي فإن معاينة أحدنا بعد موته لهذا العالم يجعله يدرك الكثير الكثير الذي لم يطّلع عليه.

...القرآن الكريم تناول الجنة وتحدث عنها باستفاضة، وعشرات الآيات الكريمة تحدثت عن الجنة، فوصفتها ووصفت ما فيها من النعيم المقيم، المتمثل في القصور والحدائق والغرف والأنهار والحور والغلمان والطعام والفاكهة، وكذلك أرضها وشجرها وطيرها إلى ما لا يعد من الأوصاف العظيمة للجنة التي وعد اللّه بها سبحانه المؤمنين من عباده وكذلك توسعت الأحاديث الشريفة في وصف الجنة وما للمؤمن فيها من كرامة وأجر ومقام عظيم أمين، ولكن يبقى كل هذا في باب الوصف ليقترب التشبيه من القلوب، ويعمل لها العاملون ويسعى إليها المؤمنون المتقون.

ولكن ومع كل هذا الوصف لم تتم معاينة الجنة، وبقينا في محور الوصف والحديث عنها للتقريب والترغيب، وفي نهاية الأمر تبقى الجنة من (عالم الغيب) الذي أخفاه اللّه سبحانه عنا، لوجوب الابتلاء والامتحان بعالم الغيب وقدرة اللّه تعالى وفق موجودات الكون والخلق. . وهكذا تبقى الجنة فوق مستوى إدراكنا وعقولنا وأفكارنا وتصوراتنا يقول تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[سورة السجدة، الآية: ١٧]

ويقول تعالى في الحديث القدسي:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» أخرجه ابن ماجهْ في سننه.

. . . فلو أن جمال الجنة وما أعدَّ اللّه سبحانه فيها ضمن تصوراتنا وعقولنا ومداركنا ومفهومنا عن الجمال، فأين ذهب علم اللّه سبحانه وقدرته وكرمه فيما أعدَّ للمؤمنين؟ كما وعد في كتابه الكريم من أجر عظيم ـ أجر كبير ـ أجر كريم إذا كان الأجر والإعداد كإعداد الدنيا وما فيها من الجمال والمتعة؟

إذاً فالجنة قرَّبها اللّه سبحانه ورسوله إلينا بالوصف والتشبيه لنستعد لها، مع بقائها خارج حدود مداركنا وعقولنا (لأنها عالم غيبي).

وكذلك فإن عالم البرزخ على كثرة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تناولت هذا العالم البرزخي. . فإنه في النهاية عالم خارج عن حدود مداركنا وعقولنا وتصوراتنا. . وفي كلا الغيبين غيب الجنة وغيب عالم البرزخ رحمة عظمى من اللّه سبحانه لبني البشر على هذه الأرض.

فأجسادنا المخلوقة على هيئتها وشاكلتها التي نراها أمام عيوننا غير جاهزة تماماً لاستقبال هذا الغيب، ولا يمكن لعقولنا وأجسادنا أن تتحمل غيباً واحداً أخفي عنا فيما لو أظهره اللّه سبحانه لنا.

. . . فقدراتنا الفيزيولوجية المخلوقة لها قدرات مسبقة مقدّرة من اللّه سبحانه وتعالى. . وفي كل نوع من الخلق وضع اللّه سبحانه قدرة فيه مغايرة للقدرة الأخرى التي وضعها في مخلوق آخر.

مع تعدد الأنواع من ملائكة وإنس وجن ووحش وطير وما علمنا وما لم نعلم.

فالإنسان له قدرة على الرؤية لا يستطيع تجاوزها فهو لا يستطيع أن يرى الملائكة ولا الجن، فقدرته البصرية المخلوقة لا تتحمل.. فالمصباح الكهربائي إذا زاد من مِئة شَمْعَة إلى ألف شَمعَة إلى ألفين، ونظر إليه الإنسان فربما يُفقده بصره، فما رأيك برؤية ملك واحد من ملائكة اللّه سبحانه الذي قد يزيد في نوره على ملايين الكيلو واط من الكهرَباء أو النور؟

... لذلك فإن اللّه سبحانه ينشئنا يوم القيامة نشأة أخرى غير نشأة الدنيا، لنستطيع أن نرى الغيب الذي أخفاه اللّه عنا لعدم قدرتنا على رؤيته، ولأن اللّه سبحانه جعله من الامتحان والابتلاء للإنسان في نفس الوقت. يقول اللّه تعالى:

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٦١ ـ ٦٢]

ويقول تعالى:

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

[سورة ق، الآية: ٢٢]

ولنعد إلى الآية الكريمة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾.. إذاً هناك غطاء حاجز وضع بيننا وبين الغيب الذي يشمل عالم البرزخ ويوم القيامة والجنة والنار، وهذا هو صريح الآية القرآنية الكريمة التي تؤكد وجود مثل هذا الحاجز بيننا وبين الآخرة كلها، بداية من الموت وحتى الدخول إلى الجنة أو إلى النار والعياذ باللّه، وعلى هذا كما ورد في الحديث الموقوف على علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: **«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»** ذلك لأن عالم الحياة الحقيقي هو العالم الذي يبدأ من لحظة الموت والذي يتجه نحو الخلود الأبدي.. فقد شبهت الدنيا وما فيها كأنها حلم عابر أو ساعة من زمن أو ما يشبه العشية والضحى.. قياساً للخلد الأبدي الذي يبدأ مع الموت.

يقول تعالى:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ .

[سورة النازعات، الآية: ٤٦]

ويقول تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ .

[سورة يونس، الآية: ٤٥]

وكذلك فإن رسول اللّه ﷺ شبه الدنيا زمنياً برجل استظل في ظل شجرة ثم ارتحل.

. . . عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

المدة الزمنية التي يلبثها الميت في برزخه

. . في المدة الزمنية اختلاف وآراء بين المفسرين والفقهاء والعلماء لأنه في الحقيقة علم غيبي أخفي عنا.

. . . والاختلاف في الرأي جاء من التفسير والتفصيل لآيات القرآن الكريم بحيث إن الآيات الكريمة تشير إلى أن الإنسان يوم القيامة يدرك أو يحس أنه لم يلبث في الدنيا وعالم البرزخ سوى عشية أو ضحاها أو ساعة من نهار أو يومٍ أو بعض يوم وفي أعلى الإدراك أو الحس أنهم لبثوا في الدنيا عشرة أيام.

وقبل أن ندخل في التفصيل الدقيق لهذا الأمر المهم علينا أن نستعرض الآيات القرآنية الكريمة الدالة على هذا المعنى.

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[سورة الروم، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦]

ويقول تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۞ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۞ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾.

[سورة النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦]

وقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٤٥]

وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٣٥]

وقال تعالى:

﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾.

[سورة طه، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤]

. . . هذه الآيات الكريمة هي من كتاب اللّٰه سبحانه الخالق العليم بخلقه وبما سيكون يوم القيامة. . ونلاحظ من الآيات الكريمة أن بعضها إخبار من اللّٰه تعالى كقوله:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾.

وقوله:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾.

وقوله:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾.

ونلاحظ أيضاً أن بعضها على لسان البشر يوم القيامة كقوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾.

وقوله تعالى:

﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾.

. . . وفي كلتا الحالتين هو إخبار من اللّٰه سبحانه وتعالى، ولكن اللّٰه سبحانه أراد أن يؤكد في كتابه أنه يعلم هذا، ومن ثم يدركه البشر يوم القيامة بإحساسهم، لذلك يقولونه بألسنتهم وهذا ما سيكون عليه شعورهم يوم القيامة.

وهذا هو شعور البشر عندما يرون العذاب يوم القيامة فتتضاءل أمامهم الدنيا ونعيمها، فينسون أيامها ولياليها حتى تبدو أمامهم وكأنها ساعة أو يوم أو عشية أو ضحاها، وإذا كان الإحساس الزمني قد ذهب عن دنياهم فأين ذهب

الإحساس والشعور عن عالم البرزخ الذي طال على أحدهم مدة قد تصل إلى عشرة آلاف عام؟

وهل الشعور بتضاؤل الزمن يشمل الحياة الدنيا وعالم البرزخ؟ وهل تعني كلمة (لبثتم) أو (يلبثوا) مدة الحياة الدنيا وعالم البرزخ؟ أم الحياة الدنيا بمفردها دون عالم البرزخ؟؟

والجواب أن مدة اللبث أو لبثتم هي مدة الحياة الدنيا وعالم البرزخ واللَّه أعلم، وإذا انفرد المعنى لأحدهما فهو لعالم البرزخ واللَّه أعلم، وهذا ما تؤيده الآيات التي سنذكرها في الفقرة التالية، والأرجح أنها تشمل الحياة الدنيا وعالم البرزخ، لأن الحياة الدنيا أمام البرزخ الذي قد يطول كما أسلفنا إلى عشرة آلاف عام تتضاءل فيشمل المعنى كليهما معاً ولكن يبقى السؤال.

وأنا في عالم البرزخ هل أحس بالزمن، ويوم القيامة يتضاءل من هول ما أرى؟ أم فعلاً أنا لا أحس بالزمن في عالم البرزخ ويكون العذاب عرضاً مستمراً يشبه بمن يرى مناماً مرعباً مخيفاً ولكنه مستمر إلى يوم البعث؟ وفي الفقرة التالية نعرض لهذا الأمر ليكون أكثر وضوحاً.

هل يحس الميت بالزمن في عالم البرزخ؟؟

. . . قلت: إن اللّه سبحانه يخبرنا أن الإنسان في يوم القيامة عندما يرى أهوال يوم القيامة يدرك ويحس ويقول: إنه لم يلبث سوى ساعة من الزمن. . ولكن قبل أن يبعث الإنسان هل يحس بالزمن الذي يلبثه في البرزخ؟ اللّه أعلم أنه لا يحس بالزمن. . فلو أحس الإنسان بالزمن في عالم البرزخ والذي قد يمتد آلاف السنين نال فيها من العذاب الذي توعد اللّه سبحانه المجرمين من الكفرة والعصاة، لما أقسم الكافر يوم القيامة أنه ما لبث في الدنيا إلا ساعة. . . فإذا فقد الإنسان الإحساس بالزمن فإنه لا يفقد إدراكه فالإنسان الذي بلغ عمره في الدنيا خمسين سنة فإن ما فاته من الزمن يفقده ولكنه لا ينساهُ ولا يفقد إدراكه فيه، وإلا ما تذكَّر من شيء فيما مضى، فالإحساس يموت ويبقى الإدراك والإدراك بالزمن هو الذي سيحاسب عليه يوم القيامة بذكرى ما فعل، قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾.

[سورة النازعات، الآية: ٣٥]

فالإحساس بالزمن يفقده، ويبقى الإدراك والتذكُّر، ولنا في القرآن الكريم خير شاهد على ما نقول: ففي سورة البقرة يذكر اللّه سبحانه قصة العزير الذي أماته اللّه سبحانه مِائة عام ثم أحياه وسأله كم لبثت؟ فقال: يوماً أو بعض يوم، وكذلك في سورة الكهف حيث يذكر اللّه سبحانه قصة أهل الكهف حيث أنامهم اللّه سبحانه ثلاثمائة عام وتسع سنين ثم يبعثهم اللّه سبحانه فيتساءلون بينهم كم لبثتم؟ فقال بعضهم: يوماً أو بعض يوم قال تعالى في قصة العزير:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٩]

. . . فقد أماته اللَّه سبحانه مِائة عام وسأله كم لبثت؟ فأجاب يوماً أو بعض يوم، أي بما يشبه نوم الدنيا مع مرور مائة عام كاملة ويقول تعالى في قصة أهل الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ١٩]

ثم قال تعالى عن مدة لبثهم في الكهف:

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٢٥]

وفي قصة العزير وأهل الكهف نتبين أن المائة عام والثلاثمائة عام كان الإحساس بمدتهما الزمنية لدى أهل الكهف والعزير واحداً، وهو يوم أو بعض يوم مع الفرق في الزمن ٢٠٩ أعوام.

. . وإذا عدنا إلى الآيات الكريمة السابقة التي يتحدث فيها اللَّه سبحانه عن يوم القيامة وعن قيام الساعة، وأن المجرمين يقسمون وقتئذٍ أنهم لم يلبثوا غير ساعة في الدنيا والبرزخ، فهذا يدل على أن الإحساس بالزمن في عالم البرزخ يتضاءل حتى لو بلغ آلاف السنين إلى يوم أو بعض يوم عند البعث يوم القيامة، وعلى هذا فإن عذاب القبر أو نعيمه عرفناه وما جهل علينا إلا كيفيته، والإحساس الزمني بهذا العذاب أو بهذا النعيم والعلم عند اللَّه ما قدمنا، يفسر القول في الأثر بأن الإنسان إذا مات فقد قامت قيامته، أو بأن الزمن الباقي ليوم القيامة بالنسبة لكل إنسان هو الفترة المتبقية من حياته على أساس أن الزمن في عالم البرزخ يتضاءل إحساساً إلى يوم أو بعض يوم حتى يبعث اللَّه من في القبور.

واللَّه سبحانه وحده أعلم بما كان وبما هو كائن وبما سيكون وهو

أعلم بعالم البرزخ وما يكون للإنسان فيه والأحاسيس والإدراك والشعور، وهو أعلم بإحساس الإنسان بالفترة الزمنية التي يلبثها في برزخه.

لذلك نجد أن اللّه سبحانه عندما يتحدث عن الساعة وعن يوم القيامة فإنه يشير إليها أنها قريب.

يقول تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾.

[سورة المعارج، الآيات: ٥ ـ ٧]

ويقول تعالى:

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٦٣]

ويقول تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٥١]

هذا لأن اللّه سبحانه أعلم بالساعة وبيوم القيامة، وأعلم بأنها قريب على أي إنسان خلقه على هذه الأرض، على أساس أن الإحساس بالزمن يتضاءل في البرزخ وما تبقى ليوم القيامة فهو الفترة الباقية له من حياته.

الفصل الثاني

الكون نشأته وتوسعه ومستقبله ومصيره ونهايته

- نشأة الكون.
- ماذا كان قبل نشأة الكون وخلق السموات والأرض؟؟
- كيف تم نشوء المجرات في الكون؟
- توسع الكون.
- مستقبل الكون.
- مصير الكون من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء.
- كيف تصور العلماء نهاية الكون؟
- نظريات علماء الفلك حول كيف بدأ الكون؟ وكيف ينتهي الكون؟؟
- جري الشمس والقمر لأجل مسمًّى دليل على نهاية الكون كله.

نشأة الكـــون

لكل شيء بداية وخالق، وماتت مع مرور الزمن كل نظرية تقول دون ذلك. فدعاة الأزلية الذين يدعون أن الكون موجود من الأزل ولا بداية له ولا نهاية ماتت نظريتهم بعد ثبوت نظرية أكثر العلماء بداية الخلق وحدوث (الانفجار الكبير)، وكذلك ماتت كل نظريات الملحدين والوجوديين وبأن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها والعلم والعلماء أثبتوا بداية لهذا الكون ونشأة نشأ بها.

فالعالم الفلكي (جيمس جينز) يقول: «الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء وإن السدائم خلقت من تكاثف هذا الغاز» (١). ويقول الدكتور (جامو): «إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منظماً»(٢) فالعلماء اليوم يصورون منشأ هذا الكون بالغاز (٣).

إن تشبيه مادة خلق السماوات بالدخان دون الهباء أو البخار أو الهواء يشير إشارة رائعة مدهشة إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران. كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما وهي كالدخان العادي حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة الصلبة والسائلة والغازية (٤). إن ولادة الكون بالانفجار الكبير نظرية وضعها الرياضيون والفيزيائيون الفلكيون كفرضية لتفسير نشوء الكون. وكان يطلق على هذه الفرضية (حتى سنوات قليلة خلت) اسم الطراز المعياري

---

(١) د. جميس جينز عالم فلكي إنكليزي معاصر.

(٢) د. جامو عالم فلكي رياضي معاصر.

(٣) كتاب روح الدين الإسلامي عفيف طبارة... صفحة ٥٠.

(٤) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم محمد سامي محمد علي.

modele de standard Standard model. وتعد الآن هذه الفرضية نظرية راسخة في الأوساط العلمية، فوفقاً لمنطوق هذه النظرية، كانت هنالك في الماضي السحيق، وقبل أن يوجد الزمن والمكان (أي قبل ثلاثة عشر مليار سنة ونصف تقريباً) كتلة من طاقة (أو كموم) quantum. يبلغ قطرها أقل من جزء من مليون مليار مليار من السنتي متر (أي أقل من عشرة ١٠. . . . .) وكانت هذه الكتلة الكمومية تحوي تجمعاً من ركام كموني Cumulus quantus، ومن جسيمات غريبة غير مألوفة EXOTIC-EXOTIQUE. وجسيمات غريبة أخرى مضادة (١ ـ ٢)، تتكون وتتفانى، ولا تخضع إلا لمبدأ الارتياب (يرجع إلى الحاشية ٢). كما أن هذه الكتلة الكمومية كانت هائلة الكثافة ومفرطة السخونة (تفوق درجة حرارتها درجة حرارة «بلانك».

وفي إثر حدوث الانفجار الكبير في هذه الكتلة، أخذت تنفصل عنها فقاعات كمومية انتفاخية، تسربت إلى الخلاء المحيط الفائق التناظر (التجانس)، والمفرط التبرد.

لقد أمسكت عندئذ قوة الانتفاخ بإحدى هذه الفقاعات وتوسعت توسعاً هائلا (تجاوز مليار مليار مرة)، وكانت سرعة التوسع تفوق سرعة الضوء (أي أكثر من ٣٠٠ ألف كم / ثانية) وعندما توقف الانتفاخ طرحت الكرة الانتفاخية المتوسعة (بذرة الكون البدئي) الطاقة الفائضة، فسخنت خلاء الكون المتشكل إلى درجة تقل عن مئة ألف مليار مليار كلفن أو درجة مطلقة (أي عن ١٠ درجات مطلقة، أو درجة حرارة «بلانك». إن طرح الطاقة الفائضة حدث أيضاً على شكل انفجار هائل، إنما أبطأ سرعة، وأقل شدة من الانفجار الأول الأعظم. لقد كانت قوى الطبيعة الأربع لحظة حدوث الانفجار الأعظم موحدة في قوة واحدة كبرى ذات بنية غشائية حويصلية وترية (إنما معطلة وظيفياً). وتمت ولادة هذه القوى بعدئذ تدريجياً.

إن حدوث الانفجار الأعظم (الكبير) أدى أيضاً إلى ولادة الكون بحدوث الانفجار الأعظم، والتي تحولت فيما بعد إلى نظرية (تثبت صحتها القياسات وقادرة على التنبؤ بملاحظات وظواهر مستجدة) قد انبثقت عن مجموعة من الأدلة (نظرية وتجريبية) تقوم (بصورة أساسية) على حقيقة توسع

الكون وحقيقة تبرده، إضافة إلى قرائن أخرى. كما أن هذه الأدلة تثبت أن خلق الكون تم بانفجارين متلاحقين الأول والأقوى، أدى إلى تكون الفقاعات الكمومية الانتفاخية التي توسعت إحداها لتشكل الكون المتوسع، ومفرط التبرد.

ومن هنا أتى تعبير الانفجار الأعظم (الكبير) الساخن (الذي يستعمل أحياناً).[١] . . **ولأهمية الأمر رأينا أن نورد ما في كتاب الدكتور منصور محمد حسب النبي رئيس قسم الفيزياء ـ جامعة القاهرة ما أورده وبينه عن نشأة الكون أو بما يسمى علمياً (انفجار البيج بانج) وعمر الكون.**

يقول: إن قانون هابل يوضح أن المجرات تتباعد حالياً عن بعضها بحيث لو رجعنا بالزمن إلى الوراء لوجدنا جميع المجرات بما فيها من أجرام ملتحمة في كتلة واحدة. وهذا يعني أن الكون كله كان في البداية رتقاً واحداً في كرة تدعى البيضة الكونية. وهذه البيضة الكونية قد انفجرت في الماضي السحيق انفجاراً ضخماً أدى إلى تناثر أجزائها في مجرات تتحرك متباعدة عن بعضها. وطبقاً لهذه الفكرة فإننا ما زلنا نرى الكون يزداد اتساعاً حتى الآن نتيجة الدفع الابتدائي الناتج عن الانفجار الأول المسمى (البيج بانج) في نظرية الانفجار الكبير. ولقد أعلن العالم الروسي جامو هذه النظرية عام ١٩٣٥ م، وأيدها هابل بقياسات طيفية حديثة والسؤال الآن: متى حدث الانفجار الكبير (البينج بانج)؟ لقد حاول العلماء معرفة تاريخ هذا الانفجار للتعرف بالتحديد إلى لحظة نشأة الكون ولكن التقديرات العلمية كانت مختلفة. فمنذ عام ١٩٥٠م والعلماء يقدرون عمر الكون على أساس قياس البعد الحالي وسرعة ارتداد المجرات، ولقد تغيرت القياسات نتيجة تقدم وسائل الرصد وكلما تم تصحيح البعد بالنسبة لأية مجرة لمسافة أطول تغير الزمن اللازم لوصول المجرة إلى هذا البعد، وبالتالي يتغير العمر المحسوب للكون. وعلى سبيل المثال فقد تغير عمر الكون من ٢ بليون سنة طبقاً لقياسات عام ١٩٥٠ م إلى ٤ بلايين ثم ٦ بلايين وحتى ١٧ ـ ٢٠بليون سنة وهذه القيمة الأخيرة اقترحها تامان **وسانداج عام** ١٩٧٢ نتيجة القياسات

---

(١) كتاب موجز تاريخ الكون د. هاني رزق طبعة دار الفكر دمشق صفحة ٢٩.

الجديدة لثابت هابل، ولكن بعض الفلكيين يعترضون على القيمة الأخيرة وبعضهم يعطي لثابت هابل قيمة تؤدي إلى تقدير عمر الكون بعشرة بلايين سنة فقط، وبهذا فإن تاريخ نشأة الكون سيظل لغزاً متروكاً دون حل، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن كل المادة الموجودة حالياً في بلايين المجرات كانت متجمعة في البداية في جزء صغير كثيف ملتهب يدعى البيضة الكونية منذ فترة تتراوح بين ١٠ ـ ٢٠ بليون سنة مضت، وأن هذه البيضة الساخنة قد انفجرت وتناثرت أجزاؤها على هيئة مجرات تتباعد عن بعضها في هذا الكون الشاسع.

ولقد حاول العلماء إثبات صحة نظرية الانفجار الكبير إلى أن **اكتشف العالمان بينزياس، وويلسون شكل ٦ ـ ٧ الأمواج الراديوية** التي تأتي من جميع الاتجاهات والتي يطلق عليها إشعاع الخلفية الكونية للجسم الأسود في درجة ٣ كلفن وذلك طبقاً لقياسات التلسكوب الراديوي في معامل شركة بل. ولقد فسر العلماء هذا الإشعاع بأنه من بقايا وآثار الانفجار الأول (البيج بانج) عندما كان الكون كرة ملتهبة وكان الإشعاع أكثر نسبياً من المادة. ويعتبر هذا الاكتشاف تأكيداً وإثباتاً لنظرية جامو، ومن أجل ذلك حصل العالمان بينزياس وويلسون على جائزة نوبل عام ١٩٧٨. وهكذا أصبح لدينا برهان جديد على أن الكون كان ملتحماً في بيضة كونية ملتهبة ثم انفجرت في البيج بانج، وأن هذا الانفجار هو المسؤول عن التوسع المستمر للكون، وهو سبب بعض الظواهر المقاسة في الوقت الحاضر (مثل إشعاع الخلفية الكونية) [١].

عمر الكون:

عمر الكون منذ لحظة الانفجار الكبير حسب نظرية أنشتاين فهو ١٣,٣ مليار سنة **وعمر الكون عند هوبل وفادلار هو بين ١٢ ـ ١٥ مليار سنة** بناء على طريقتين نوويتين مختلفتين، وهذه الأرقام تجعلها قريباً جداً من الرقم ١٣،٥ ملياراً وهو الرقم المعتمد اليوم عند أكثر علماء الفلك، ولكن الدراسة التي قام بها أكبر تلسكوب معاصر (هابل) أكد أن عمر الكون ١٢ مليار سنة.

---

(١) القرآن الكريم والعلم الحديث د. منصور محمد حسب النبي ـ صفحة ٢٤٣ ـ رئيس قسم الفيزياء. جامعة القاهرة.

ماذا كان قبل نشأة الكون وخلق السماوات والأرض

يقول تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾.

[سورة هود، الآية: ٧]

هذه الآية الكريمة عظيمة الشأن عظيمة المعنى، عظيمة الدلالة، فالعلماء المعاصرون يتساءلون ويبحثون عن جواب ماذا كان قبل (الانفجار الكبير) وهو لحظة خلق الكون ونشأة النجوم والمجرات، فلا يجدون جواباً شافياً بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من دراساتهم وبحوثهم في عالم الفلك، وهم يتخبطون في الجواب وكثرت النظريات وكل يدلي بدلوه، فالجواب أعياهم والنظريات كثيرة والإنسان بطبعه لا يترك شيئاً إلا ويسأل عنه ويبحث عنه، وليس هذا عيباً في الإنسان.. إنما دلالة على أن الإنسان مخلوق يحب البحث والاستقراء قال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٥٤]

أي ليس مثل الإنسان فيما خلقت يحب الجدل أو أكثر منه جدلاً في كل مسائل الخلق وما تراه عينه وما يسرح به خياله وفكره. وهذه ميزة العقل التي جعلها اللّه سبحانه وتعالى في الإنسان.

... فالآية تشير إلى أن هناك أمراً كان قبل خلق السماوات والأرض، وتشير أن اللّه كان عرشه على الماء قبل خلق السماوات والأرض.

فهذه الآية العظيمة ذات مدلول كبير توسعت دائرة الشرح والتفسير فيها، لأنها تتكلم عن أمر عظيم وهو تساؤل العلماء ماذا كان قبل خلق السماوات

والأرض. . . . علماء الفلك المعاصرون يسألون ماذا قبل الانفجار الكبير الذي هو بداية خلق الكون وتكوُّن المجرات والنجوم، وهم لا يسألون من وجهة نظر دينية، لأن كثيراً منهم لا يؤمنون وكثيراً منهم يحاول أن يثبت أزلية الكون وأبديته حيث لا تكون بداية ولن تكون نهاية، ولكن رُدُّوا من قبل علماء فلك آخرين أيضاً ليس من وجهة نظر دينية أن للكون بداية وله نهاية، وأن الإنسان له بداية وله نهاية، وأن الأرض والشمس والقمر لها بداية وسيكون لها نهاية. جدل قائم وأكثر الجدل حول مسألة مهمة ماذا كان قبل الانفجار الكبير. . أي ماذا كان قبل خلق السماوات والأرض، اللّه سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾.

[سورة هود، الآية: ٧]

وهم، أي: علماء الفلك لا يعرفون ولكنهم يضعون الفرضيات، ولنستمع إلى علماء التفسير حول هذه الآية الكريمة كمدخل مهم جداً قبل التفصيل في هذه المسألة العظيمة من مسائل الخلق.

وفي التفسير الوسيط للزحيلي:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان العرش وهو أعظم المخلوقات فوق الماء وكان موجوداً قبل أن يخلق اللّه شيئاً (١).

وفي الموسوعة القرآنية الميسرة

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان عرشه قبل خلق السماوات والأرض على الماء، والعرش مخلوق عظيم يليق به تعالى لا تعرف حقيقته نؤمن به من غير تشبيه كما ورد(٢).

وفي تفسير السعدي:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان عرشه فوق السماء، فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه.

---

(١) التفسير الوسيط مجلد ٢ صفحة ١٠٢٤.

(٢) الموسوعة القرآنية الميسرة صفحة ٢٢٢.

يقول الصابوني في صفوة التفاسير:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: وكان العرش قبل خلق السماوات والأرض على الماء، **وقال الزمخشري في الكشاف**: أي ما كان تحته خلق، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض.

وفي تفسير الفخر الرازي:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال كعب: خلق اللّه تعالى ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماءً يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء. قال أبو بكر الأصم: معنى قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ كقولهم: السماء على الأرض، وليس على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر، وكيف كانت الواقعة، فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السماوات والأرض، **وقالت المعتزلة**: في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما، لأنه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء، لأنه تعالى لما خلقهما فإما أن يكون خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثاني عبث، فبقي الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة.. **وأما أبو مسلم الأصفهاني** فقال في معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي بناؤه السماوات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس وبين أنه تعالى إذا بنى السماوات على الماء كانت أبدع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط مع الماء... ثم يعود الفخر الرازي حول الآية الكريمة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ويقول: هناك تساؤلات.

الأول: ما الفائدة في ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السماوات والأرض؟ والجواب فيه دلالة على كمال القدرة، فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك؟! والثاني: أنه تعالى أمسك الماء على قرار وإلا لزم أن تكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدل على ما ذكرناه؛ والثالث: أن العرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه اللّه تعالى فوق سبع سماوات من غير دعامة ولا علاقة فوقه.

الثاني: **هل يصح ما يروى أنه قيل: يا رسول اللّه ماذا قبل خلق السماوات والأرض؟**

قال **(كان في عماء فوقه هواء وتحته هواء)** والجواب: أن هذه الرواية ضعيفة، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول، وهو قوله ﷺ: **(كان اللّه وما كان معه شيء، ثم كان عرشه على الماء)**[١].

. . . نكتفي بهذه التفاسير ونلاحظ تعدد وجهات النظر، وأكثر تفصيلاً كان من تفسير الفخر الرازي في التفسير الكبير، إذ إن الفخر الرازي كان معروفاً ببسطة التفصيل في مثل هذه الأمور العظيمة وتلك الآيات الكريمة المهم أن مثل هذه الآية كانت موضع اختلاف في التفسير وهذا صحيح لأن مثل هذا الأمر معرفته تفوق تخيلات البشر جميعاً فهؤلاء علماء الفلك اليوم وبكل ما يملكون من أدوات جبارة مختلفون حول هذا الأمر. . .

ويبقى صراع السؤال بين السلف وبين الخلف، بين علماء الأمس وعلماء اليوم، وبين المفسرين السابقين وبين المفسرين المعاصرين. . وكذلك يبقى صراع السؤال بين المحدثين من علماء الفلك اليوم حول قضية الخلق وما قبل الانفجار الكبير. . وسؤال المعاصرين اليوم ربما يختلف عن سؤال السابقين ذلك أنهم لم يكونوا يعلمون (بالانفجار الكبير) الذي هو بداية الخلق والوجود، وتكوين المجرات والنجوم والكواكب والشمس والأرض والقمر فيما بعد.

(١) الفخر الرازي التفسير الكبير مجلد ٩ صفحة ١٩٥.

كيف تم نشوء المجرات في الكون؟

انطلاقا مما رأينا عن الكون، تتشكل تكاثفات محلية تناثرت هنا وهناك في الفضاء، بسبب عدم قدرة الانجذاب المتبادل بين الذرات الذي يعتبر غير كاف لتأمين استقرارها، بينما استمرت التكثفات الكبرى، في حين أن الجاذبية التي تمارسها على الذرات المعزولة جعلتها تكبر حجماً وتتضخم فبلغت ما هي عليه الآن.

فكان من جراء ذلك أن أدت حركة الذرات المنبعثة من الطاقة الانجذابية إلى ارتفاع درجة حرارة الأجرام الأولية، فتولد عن كل ذلك حركة دوران بطيئة، وهذه هي المرحلة الثانية من نشوء الكون. أما المرحلة الأخيرة من نشوء المجرات فقد استغرقت عدة مئات من ملايين السنين، وتدريجياً بدأت الأجرام بالتقلص بسبب الحرارة المشعة والتبريد الذي يتبعها، بعد أن ازدادت سرعة دورانها.

يعتقد علماء الفلك أن الأجرام والكواكب، لم يتم تشكيلها في مرحلة واحدة بل استغرقت مراحل متلاحقة وتطوراً منتظماً حتى وصلت إلى ما هي عليه، ولا تزال في حالة تطور دائم إنما عبر فترات زمنية طويلة الأمد. وإذا أردنا تحليل هذه الأجرام، وفقاً للمادة الكونية التي تشكلت منها نستطيع تصنيفها كالتالي: هناك أجرام تكونت من اختلاط الغاز والغبار الكونيين، وهناك أجرام كوكبية تكونت من كرات غازية تشتمل في أحد مراكزها على نجمة، ومن الأمثلة على ذلك مجرة درب التبانة التي تحدثنا عنها في مكان آخر. لأن بإمكانها اختراق الظلمة الكثيفة والدخان والضباب. . . وهذا من الصعب تحقيقه مع أفضل الراصدات.

اكتشاف المجرة الأبعد في الكون

حققت إحدى مجموعات علماء الفلك الدوليين خطوة قياسية جديدة

عبر اكتشاف المجرة المعروفة بكونها الأكثر بعداً في هذا الكون، فهي تتواجد على بعد حوالي ثلاث عشرة مليار سنة ضوئية، وقد تم رؤيتها بعد مرور سبعمئة وخمسين مليون سنة على الانفجار الكوني الكبير أي حين كان عمر الكون وبالكاد يبلغ خمسة بالمئة من عمره الحالي.

وقد تم تحديد المجرة البدائية عبر **استخدام تليسكوب هابل الفضائي** التابع لوكالة الفضاء الأمريكية ووكالة الفضاء الأوروبية **وتليسكوب «كيك كارا» في موناكي في هاواي** وقد اكتسب هذان المرصدان دفعاً كبيراً بفضل إضافة عدسات انجذاب كوني طبيعية في الفضاء ما زاد من نسبة لمعان المجرة البعيدة ويرجح أن تكون المجرة التي تم اكتشافها حديثاً مجرة حديثة التكوين ظهر ألقها في أواخر ما يعرف بالعصور المظلمة، وهي عبارة عن حقبة من التاريخ الكوني انتهت بظهور المجرات والأجرام الأولى التي حولت جزيئات الهيدروجين غير الشفافة إلى كون شفاف مؤين كما نراه اليوم.

لقد تم رصد المجرة الجديدة بفضل تراكم مجموعة المجرات المجاورة وهي مجموعة أبيل ٢٢١٨، وتم التقاط الصور بواسطة كاميرا المسح المتقدمة **على متن تليسكوب هابل الفضائي** وإن هذه المجموعة ضخمة جداً بحيث أن ضوء الأجسام البعيدة الذي يمر عبرها ينحرف ويتوسع بنسبة أكبر مما يفعل عبر الزجاج المكبر الذي يحرف ويكبر الأجسام المرئية عبره، وإن أجهزة التليسكوب الانجذابية الطبيعية المماثلة تسمح لعلماء الفلك برؤية الأجسام البعيدة والباهتة مهما بلغ بعدها، كما تشكل الوسيلة الوحيدة لرؤية هذه الأجسام وإن لون المجرة باهت جداً، وموقعها بعيد للغاية وضوؤها المرئي قد امتد وانقسم إلى أطوال موجية تحت الحمراء، ما زاد من صعوبة عمليات الرصد بشكل كبير.

ويقول عالم الفلك **«جان بول نيب» (من مرصد «ميدي بيرينيه» ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا)** وهو كاتب مقال حول تقرير الاكتشاف سيصدر في عدد مقبل للصحيفة الفيزيائية الفلكية أو **Astrophysical Journal** بينما كنا نبحث عن المجرات البعيدة التي تم تضخيمها بواسطة أبيل ٢٢١٨ قمنا برصد زوج من الصور التي تتشابه بشكل متضارب والتي يشير ترتيبها ولونها إلى وجود جسم بعيد للغاية ويشير تحليل سلسلة من صور «هابل» إلى أن معدل

الإزاحة نحو الأحمر الخاص بهذا الجسم يتراوح بين ٦ر٦ و١ر٧، ما يجعله المصدر الأبعد الذي تم اكتشافه حتى الآن. وفي أي حال إن العروض الطويلة في الحقول البصرية وتحت الحمراء والتي تمت بواسطة **مرسمات الطيف على تليسكوب «كيك»** ذات العشرة أمتار تشير إلى أن الجسم يمتلك معدل إزاحة نحو اللون الأحمر يكاد يبلغ أقصى السلسلة فهو يوازي ٧ر ومعدل الإزاحة نحو اللون الأحمر عبارة عن قياس كيفية زيادة طول أطوال الضوء الموجية، وكلما كانت الزيادة باتجاه المناطق الشديدة الاحمرار في الطيف كلما زاد بعد الجسم.

وفي هذا السياق يقول «دنيب»: إن المجرة التي اكتشفناها باهتة إلى حد بعيد، وقد شكلت عملية التأكد من مسافة بعدها مغامرة مفعمة بالتحدي وبدون التضخيم الذي وفرته المجموعة الأمامية والذي بلغ خمساً وعشرين مرة لمَا تمَّ تحديد هذا الجسم الحديث أو دراسته بأي تفصيل كان على الرغم من توفر أجهزة التليسكوب الحالية وحتى بواسطة عدسات الانجذاب الكوني. إن الاكتشاف لم يصبح ممكناً إلا عبر الزيادة القصوى لقدرات مراصدنا الحالية[١].

---

(١) عن مركز هارفارد سيمبشونيان للفيزياء الفضائية ـ الولايات المتحدة الأميركية إبريل / ٢٠٠٥ نيتشر العلمية.

توســـع الكون

يقول تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٤٧]

آية كريمة يحق لنا أن نقول عنها: قمة الإعجاز، وقمة البيان، وقمة الدلالة على أن القرآن كتاب اللّٰه تعالى، أنزله على عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ.

... ولو نزل تفصيل لهذه الآية الكريمة في ساعة نزول القرآن الكريم، لما فهمها الناس مطلقاً، لأنها علم عظيم من إلٰه عظيم قادر مقتدر.

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ كلمتان ولكن تحملان من المعاني ما لا يعلمه إلا اللّٰه، وما أراد أن يعلمه خَلْقه.. لقد صدق اللّٰه سبحانه وتعالى إذ يقول:

﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾.

[سورة ص، الآية: ٨٨]

وحق للقرآن الكريم أن يكون معجزة خالدة، خالدة في تجددها الدائم وليس في إعجازها يوم نزل القرآن الكريم، وصدق من قال: إن القرآن الكريم بحر زاخر لا تنتهي نفائسه.. وفي هذه الآية الكريمة نقول: الحمد للّٰه الذي أرانا آياته فعرفناها، والحمد للّٰه الذي خصَّ هذا الجيل فظهرت تباعاً دلائل قدرته.

يقول تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ ﴾.

[سورة النمل، الآية: ٩٣]

وهي آيات القرآن الكريم والتي لم تعرف ولم تفسر في وقت نزول القرآن الكريم، وفسرت تباعاً. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ

﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ تبقى دائماً، والحمد دائم ومعرفتنا بآيات اللّه دائمة ومستمرة دون انقطاع إلى أن يتبين للبشرية جميعاً أن اللّه سبحانه وتعالى هو الحق، وهو الخالق ولا إله سواه.

يقول تعالى:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

... من أجل هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ طفت في كتب التفسير قديمها وحديثها، لأرى كيف فسرت هذه الآية الكريمة؟ وما مدى علم المفسرين كل في عصره عن هذه الآية الكريمة؟

ولنقرأ في بعض كتب التفسير ما كتبه المفسرون عن هذه الآية الكريمة؟

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٤٧]

يقول ابن كثير:

يقول تعالى: منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً، ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة، قاله ابن عباس ومجاهد. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وسعنا أرجاءها بغير عمد حتى استعلت كما هي.

ويقول الصابوني في صفوة التفاسير: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة، قال ابن عباس: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ بقوة. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وإنا لموسعون في خلق السماء، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في بعض الأحاديث، وقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون، من الوسع بمعنى الكافة.

ويقول الزحيلي في التفسير الوسيط: لقد بنينا السماء بقوة ومقدرة وإنا لذو قدرة وسعة على خلقها وخلق غيرها فنحن قادرون، ولا نعجز عن ذلك، ولا يمسنا تعب، فقوله: ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ نوسع الأشياء قدرة وقوة.

وفي الموسوعة القرآنية الميسرة: والسماء بنيناها بقوة وقدرة وإنا لقادرون على خلقها وخلق غيرها، وذو سعة على كل شي.

وفي تفسير السعدي يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: خلقناها وأتقنَّاها وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها، ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضاً على عبادنا في الرزق.

وفي الجلالين للسيوطي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ بقوة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قادرون. يقال: آد الرجل يئيد، أي قوي، وأوسع الرجل: صار ذا سعة وقوة.

هذه بعض التفاسير والتي كانت جميعاً مقتضبة في التفسير، ولم أجد تفسيراً واحداً يتوسع في معاني هذه الآية الكريمة. وكأني أراهم جميعاً أجمعوا على أن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لأرجاء السماء وأنحائها مع اختلاف بسيط في التفسير.

نعود إلى التفسير العلمي المعاصر ومعجزة هذه الآية الكريمة، ولماذا يوسع اللّه سبحانه وتعالى هذا الكون؟

وفي البداية نقول: الآية معجزتها بكلمة ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ ولغة: ليس هناك اختلاف في التفسير، إذ إن المعنى يشير إلى التوسع والتمدد لهذا الكون ولا تغير في المعنى، وليست كلمة (موسعون) سوى أنه توسيع لأرجاء السماء وأنحائها.

... الكون أمام ناظرينا ثابت ولا شيء يتبدل ولا يتغير، ولا نرى أنَّ نجوماً في صفحة السماء ذهبت وأتى غيرها أو نرى في كل يوم نجوماً جديدة ومواقع جديدة، لذلك كانت النظريات إلى حين من الزمن قريب تشير إلى سكون الكون وثباته، حتى عندما ظهرت النظرية النسبية للعالم الرياضي **الإنكليزي أنشتاين واكتشف سرعة الضوء، إلا أنه لم يتحدث عن تمدد الكون واتساعه، وبقي أنشتاين على نظرية سكون الكون وثباته.**

... ولما أراد اللّه سبحانه وتعالى أن تفسر هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ هيأ لهم ما يستطيعون به كشف تمدد الكون واتساعه.

وأول الاكتشاف تم في الدراسات التي أجريت على طيف المجرَّات.

وفي كتاب موجز تاريخ الكون يقول مؤلفه:

لا بد منذ البداية تأكيد حقيقة محورية تشكل مركز الثقل في نظرية الانفجار الأعظم أو النموذج المعياري... وتتمثل هذه الحقيقة في أن توسع الكون حدث ولا يزال يحدث بسبب قوة الانفجار (لحظة نشوء الكون) فإذا كانت المجرَّات تندفع بتباعد بعضها عن بعض، والكون يتوسع باستمرار، فإن ذلك يرجع إلى قوة الانفجار الأعظم التي سببت توسعاً لفقاعة الانتفاضة الأولى، وشكلت الجزر الأولية للكون الوليد، وأدت وتؤدي باستمرار إلى تباعد المجرَّات وتوسع الكون.. ويقول: مما لا لبس فيه أن الفضل في التنبؤ بتزايد قطر الكون يرجع إلى الرياضي الفيزيائي الروسي (**ألكسندر فريدمان**)، الذي وضع نماذجه الرياضية (بناء على قراءة صحيحة للنسبية العامة، ووضع حلولاً تنبثق عن هذه القراءة) وبرهن بوساطتها على وجود بداية لهذا الكون حدث فيها الانفجار الأعظم، وعلى أن هذا الكون يتوسع باستمرار، وكما يمكن الاستنتاج من قراءة أبعد لنماذج (فريدمان)، أن الكون ربما لا يعاني ارتصاصاً أعظم بل قد يبقى بتوسع دائم، إما بمعدل ثابت متوازن، أو بمعدل متسارع(١).

وفي كتاب القرآن الكريم والعلم الحديث(٢).

يقول مؤلفه: توسع أو تمدد الكون أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث، ولقد أصبح هذا التوسع مفهوماً ثابتاً وحقيقة لا جدال فيها، لدرجة أن المناقشات العلمية تدور فقط حول الطريقة التي يتم بها هذا التوسع أو التمدد! ويقول: لقد تنبأت النظرية النسبية العامة لأنيشتاين بهذه الظاهرة وأجريت قياسات عملية كثيرة على (أطباق المجرات)، ولقد استخدمت ظاهرة (دوبلر) لِلإزاحة الطبقية لتدعيم هذه النظرية، وتنشأ ظاهرة (دوبلر) عندما تتغير المسافة بين المصدر الضوئي والرَّاصد، وإذا زادت المسافة بينهما عندما يتحرك أحدهما أو كلاهما فإن الطيف الضوئي

---

(١) موجز تاريخ الكون د. هاني رزق صفحة ٣٨.

(٢) القرآن الكريم والعلم الحديث د. منصور محمد حسب النبي رئيس قسم الفيزياء في جامعة القاهرة صفحة ٢٤٠.

الصادر تحدث له إزاحة معينة نحو الطول الموجي الأكبر، بحيث تتناسب الإزاحة الطبقية طردياً مع سرعة التحرك، وتدعى في هذه الحالة بالإزاحة الحمراء.

. . . ولقد درس (دوين هابل) خطوط طيف الامتصاص للمجرَّات، فتبين له أن جميع المجرَّات خارج مجموعتنا المجرّية (درب التبانة). . والتي تتبع لها مجموعتنا الشمسية وكوكبنا الأرضي ـ تعطي إزاحة حمراء، وبهذا استنتج (هابل) أن معظم المجرات تتباعد عنا وكلما ابتعدت المجرَّات ازدادت سرعة ارتدادها أو تراجعها عنا!

ولقد تبين أن سرعة التراجع تزداد بمقدار ١٧ كم/ ثانية لكل مسافة قدرها مليون سنة ضوئية.

ما معنى هذا؟ معناه: أن المجرة التي تبعد عنا ١٠٠ مليون سنة ضوئية تتراجع أو ترتد عنا بسرعة قدرها ١٠٠ × ١٧ = ١٧٠٠ كم في الثانية الواحدة. . ومثل آخر إن (عنقود كوما) وهو تجمع مجري يبعد عنا ٣٥٠ مليون سنة ضوئية، فإنه يتراجع عنا بسرعة ١٧ × ٣٥٠ = ٥٩٥٠ كم في الثانية الواحدة، وهكذا فالمجرة التي تبعد عنا مليار سنة ضوئية تتراجع عنا بسرعة ١٧٠٠٠ كم في الثانية الواحدة، وثابت التناسب هنا وقدره ١٧ كم في الثانية لكل مليون سنة ضوئية، وهذا الاكتشاف **(بثابت هابل)**.

وقانون هابل هذا ظاهرة تستدعي الانتباه. . فكل المجرات تتباعد عنا، وكلما ابتعدت المجرَّات ازدادت سرعة تمددها وارتدادها وهذه الظاهرة تدعى ظاهرة تمدد الكون.

. . . ومما يدل على دقة خلق الكون، ومنذ الانفجار الكبير، وأن توسع الكون الناتج عنه وعلى مدى ثلاثة عشر ونصف المليار سنة هو بمنتهى العلم والحساب الدقيق.

يقول العالم البريطاني المعروف **(بول ديفز)**:

(لقد دلت الحسابات أن سرعة توسع الكون تسير في مجال حرج للغاية، فلو توسع الكون بشكل أبطأ بقليل جداً عن السرعة الحالية، لتوجه إلى الانهيار الداخلي بسبب قوة الجاذبية، ولو كانت هذه السرعة أكثر بقليل

عن السرعة الحالية لتأثرت مادة الكون وتشتت الكون، ولو كانت سرعة الانفجار تختلف عن السرعة الحالية بمقدار جزء من مليار × مليار جزء، لكان هذا كافياً للإخلال بالتوازن الضروري، لذا فالانفجار الكبير ليس انفجاراً اعتيادياً، بل عملية محسوبة جيداً من جميع الأوجه وعملية منظمة جداً).

وماذا نستنتج من كل هذه الشواهد والمعلومات العلمية؟

يشرح (**بول ديفز**) النتيجة الحتمية لهذه الدلائل والتي لا تقبل النقاش فيقول: (من الصعب جداً إنكار أن قوة عاقلة ومدركة قامت بإنشاء هذا الكون المستندة إلى حسابات حساسة جداً. إن التغييرات الرقمية الحساسة جداً والموجودة في أسس الموازنات في الكون، دليل قوي جداً على وجود تصميم على نطاق الكون).

أما العالم الفيزيائي المشهور (**ستيفن هوفكن**): فهو يتناول في كتابه (التاريخ المختصر للزمن) الدقة المذهلة الموجودة لسرعة توسع الكون في الثانية الأولى الحرجة من الانفجار الكبير، فيقول: (إن سرعة توسع الكون سرعة حرجة جداً، إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون × مليار جزء، لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه الحالي).

إذاً هذا هو مبلغ الدقة المذهلة في تنظيم هذا الانفجار الكبير في تصميم سرعته.

والنتيجة الحتمية التي يصل إليها عالم الفلك الأمريكي (**جورج كرنشتاين**) في كتابه (**الكون التكافلي**) هي: (كلما دققنا الأدلة واجهتنا على الدوام الحقيقة نفسها، وهي أن هناك قوة عاقلة فوق الطبيعة تدخلت في نشوء الكون)[(١)].

حقاً إنها آية عظيمة لا يمكن أن تصدر عن بشر ولو اجتمعوا لها، فإذا كان العلم لم يكتشف حقيقة توسع الكون إلا بعد عام ١٩٣٠م أي: منذ أقل

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة يوسف الحاج أحمد.

من مائة عام، ونحن دخلنا أبواب القرن الواحد والعشرين فكيف ينزل في كتاب حقيقة توسع الكون في وقت كانت البشرية كلها تعيش جهلاً حقيقياً عن علم السماء وما فيها، فسبحان رب السماوات ورب الأرض رب العرش عما يصفون، يقول تعالى:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٣٧]

مستقبل الكون

(The Future of The Universe)

إذا كان تمدد الكون واقعة علمية قبلها في العصر الحاضر كثير من علماء الفلك والفيزياء الفلكية فهل لهذا التمدد أن يستمر إلى الأبد؟ أو هل سيقف تمدده ويبدأ في الانكماش مرة أخرى إلى نقطة البداية؟ هل سيكون هناك نموذج تمدد آخر في الاتجاه المعاكس بحيث يؤول الكون إلى كتلة نقطية وتعود درجة حرارة إشعاعه (K٧,٢) للارتفاع بعد برودته؟

إن النظرية النسبية العامة ـ حسب افتراض النقوش (الفراغ / الزمن) النسبي لأينشتاين ـ تفترض بأن معدل تمدد الكون يتباطأ مع الزمن. أي بمعنى آخر فإن معدل زيادة نصف قطره يقل مع الزمن حتى يصل إلى الحد الأقصى ويصبح شكل الكون شبه كروي وكثافته عندئذ تصل إلى قيمة حرجة مقدارها حوالي (١٠χ١كغم/ م٣)، بينما تبلغ قيمة كثافة الكون المقدرة من مشاهدة المجرات حوالي (١٠χ٣كغم/ م٣) وهي أقل بكثير من قيمة الكثافة الحرجة له.

وتدل **قيمة الكثافة الحرجة** على أن الكون يحتوي على مكونات أخرى كالغاز أو الغبار أو الثقوب السوداء من جهة أو ربما يأخذ الكون في التقلص أو الانكماش بعد أن يبلغ قطر تكوره الحد الأقصى من جهة أخرى كما يستدل على هذا المفهوم من زاوية أخرى: وهي أن **النيوترينوات** التي تكونت في المراحل الأولى لنشأة الكون لها كثافة أكبر من كثافة الكون مما يجعلها تزود مادة الكون بقوى تجاذب ضرورية لعكس عملية تمدد الكون **(Big Bang)** ورغم المعلومات والمشاهدات المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر فإننا لا نستطيع أن نجزم أن كوننا هو نظام مفتوح (قابل ومستمر في التمدد) أم أنه نظام مغلق (وصل تمدده إلى

الحد الأقصى مما يجعله يتقلص مرة ثانية) كما أن النتائج الفلكية والنماذج الكونية التي يرتكز عليها علم الكون والفلك ما زالت غير مؤكدة يحيطها الشك من كل جانب، وهل هي قابلة للسير قدماً أو الاندثار أمام ما يمكن للعلماء أن يكتشفوا مستقبلاً[١]؟

---

(١) كتاب علوم الفلك والكون أ ـ د. عواد الزحلف صفحة ٢٢٤.

مصير الكون من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء

نظرية أينشتاين عن النسبية العامة، هي في ذاتها تتنبأ بأن المكان ـ الزمان يبدأ عند مفردة الانفجار الكبير وسوف يصل إلى نهايته عند مفردة الانسحاق الكبير إذا تقلص الكون ثانية.

هل يكون لميكانيكا الكم تأثير درامي مساو لذلك على مفردة الانفجار الكبير والانسحاق الكبير؟ ما الذي يحدث حقاً أثناء الأطوار المبكرة جداً أو المتأخرة جداً من الكون عندما تكون مجالات الجاذبية من القوة بحيث لا يمكن تجاهل تأثيرات الكم؟هل للكون حقيقة بداية أو نهاية؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف تبدوان؟

وحتى أفسر ما لدي أنا وأناس آخرون من أفكار عن كيف قد تؤثر ميكانيكا الكم في أصل ومصير الكون، فإن من الضروري أولاً فهم تاريخ الكون المقبول بصفة عامة حسب ما يعرف.

وفيما يعتقد فإن الكون وقت الانفجار الكبير نفسه يكون حجمه صفراً، وبهذا فإنه يكون ساخناً على نحو لا متناه. ولكن الكون إذ يتمدد، فإن حرارة الإشعاع تقل. وبعد الانفجار الكبير بثانية واحدة، تكون الحرارة قد هبطت لما يقرب من عشرة آلاف مليون درجة. وهذا يبلغ ما يقرب من ألف ضعف لدرجة الحرارة في مركز الشمس.

وبعد الانفجار الكبير بما يقرب من مائة ثانية، تكون الحرارة قد انخفضت إلى ألف مليون درجة، وهي درجة الحرارة من داخل أسخن النجوم.

وعند هذه الحرارة فإن البروتونات والنيوترونات لا يصبح لديها الطاقة الكافية للهرب من جاذبية القوة النووية القوية وتبدأ في الاتحاد معاً لإنتاج نوايات ذرات الديتروم (الهيدروجين الثقيل).

هذه الصورة عن طور مبكر ساخن للكون طرحه لأول مرة العالم **جورج جاموف** في ورقة بحث شهيرة كتبها سنة١٩٤٨م مع أحد طلبته وهو **رالف ألفر**.

وفي خلال ساعات معدودة فحسب من الانفجار الكبير، يكون إنتاج الهيليوم والعناصر الأخرى قد توقف. وبعد ذلك فإن الكون طيلة المليون سنة التالية أو ما يقرب من ذلك يواصل تمدده. دون أن يحدث الشيء الكثير وفي النهاية فإنه تنخفض درجة الحرارة إلى آلاف معدودة من الدرجات ولا يصبح بعد لدى الإلكترونات والنوايات الطاقة الكافية للتغلب على ما يكون بينها من جذب كهرومغناطسي، فإنها تبدأ في الاتحاد لتكوين الذرات ويستمر الكون ككل في أن يتمدد ليبرد.

وفي النهاية عندما تصبح المنطقة صغيرة بما يكفي يصبح دورانها سريعاً بما يكفي للتوازن مع شد الجاذبية، وبهذه الطريقة تتم ولادة المجرات الدوارة التي تشبه القرص. أما المناطق الأخرى التي لا يتفق أنها تكتسب الدوران، فإنها تصبح أشياء بيضاوية الشكل تسمى المجرات ذات القطع الناقص، وفي هذه المجرات تتوقف المنطقة عن التقلص لأن الأجزاء المفردة من المجرة تلف بثبات حول مركزها ولكن المجرة ككل ليس لها دوران.

وهذه الصورة للكون الذي يبدأ ساخناً جداً ثم يبرد وهو يتمدد تتفق مع كل دليل المشاهدات الذي لدينا في وقتنا هذا. ومع ذلك فإنها تخلف عدداً من الأسئلة المهمة بلا جواب.

١ ـ لماذا كان الكون المبكر ساخناً للغاية؟

٢ ـ لماذا يكون الكون متسقاً للغاية على المقياس الكبير؟ لماذا يبدو متماثلاً مع كل نقط المكان وفي كل الاتجاهات؟ ولماذا بالذات تكون حرارة إشعاع الخلفية الميكروويفية متماثلة تقريباً عندما ننظر من الاتجاهات المختلفة؟

٣ ـ لماذا بدأ الكون وله تقريباً نفس معدل التمدد الحرج الذي يفصل الأنماط التي تتقلص ثانية عن تلك التي تواصل التمدد للأبد، بحيث أنه حتى في وقتنا هذا بعد مضي عشرة آلاف مليون سنة وأكثر وما زال يتمدد بمعدل التمدد الحرج؟ ولو كان معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير

أصغر حتى بجزء واحد من مائة ألف مليون مليون، ولكان الكون قد تقلص ثانية قبل أن يصل قط إلى حجمه الحالي.

٤ ـ ورغم أن الكون بالمقياس الكبير جداً متسق ومتجانس إلا أنه يحوي أوجه عدم انتظام على النطاق المحلي، مثل النجوم والمجرات، ومن المعتقد أن هذه قد نشأت عن اختلافات صغيرة في كثافة الكون المبكر من منطقة لأخرى. ما أصل هذه التذبذبات في الكثافة؟

إلا أن تاريخ الكون في الزمن الحقيقي سيبدو مختلفاً جداً. فمنذ ما يقرب من عشرة أو عشرين ألف مليون سنة. كان له حجم أدنى يساوي أقصى نصف قطر التاريخ في الزمن التخيلي وفى الأزمنة الحقيقية اللاحقة سيتمدد الكون على مثال النموذج التضخمي الفوضوي الذي اقترحه لند (ولكن ليس على المرء الآن افتراض أن الكون قد نشأ بطريقة ما في الحالة ذات النوع المناسب) وسوف يتمدد الكون إلى حجم كبير جداً ثم يتقلص ثانية في النهاية إلي ما يبدو كمفردة في الزمان الحقيقي، وهكذا فبمعنى ما فإننا ما زلنا معرضين للهلاك حتى لو بقينا بعيداً عن الثقوب السوداء ولن ينتفي وجود المفردات إلا إذا أمكننا تصوير الكون بحدود من الزمان التخيلي.

وفكرة أن المكان والزمان قد يكونان مسطحاً مغلقاً بلا حد لها أيضاً دلالات عميقة على فلسفة شؤون الكون. ومع نجاح النظريات العلمية في توصيف الأحداث وصل معظم الناس إلى الإيمان بأن الكون جعل ليتطور حسب مجموعة من القوانين التي لا تكسر. على أن هذه القوانين لا تخبرنا بما ينبغي أن يكون الكون عليه عند بدايته. على أنه لو كان الكون حقاً بلا بداية وبلا حرف فإنه لا تكون له بداية ولا نهاية: فهو ببساطة موجود [١].

(١) تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء ـ تأليف ستيفن هوكنج ـ ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي.

كيف تصور العلماء نهاية الكون؟

تصور العلماء نهاية الكون من خلال نظرياتهم حول الجاذبية وفاعليتها وتأثيرها على هذا الكون ووصفوا النظريات حول تصورهم لنوعين من الكون:

ـ النوع الأول: الكون المفتوح والنوع الثاني الكون المغلق.. وذلك إما بانتصار قوة الجاذبية أو انتصار قوة التوسع الكوني..

١ ـ ولكن ما الذي يقرر انتصار قوة الجاذبية أو انتصار قوة التوسع الكوني؟

والجواب عن هذا السؤال هو: إن كان التوسع الكوني بالمقدار الذي تستطيع به المجرات من الإفلات من قوة الجاذبية فإن التوسع سيستمر دون توقف. وهذا هو نموذج (الكون المفتوح).

أما إن كانت سرعة الكون أقل من سرعة الإفلات هذه فإن توسع الكون سيقف بعد مدة ويبدأ الكون بالانكفاء على نفسه وبالتراجع القهقرى. وهذا هو نموذج (الكون المغلق).

٢ ـ وماهي سرعة الإفلات؟

هي أصغر سرعة لازمة للإفلات من قوة جاذبية مكان ما. فمثلاً إن سرعة الإفلات بالنسبة لأرضنا هي (٢٣,١١كم / ثانية). أي إن أطلقت صاروخاً بهذه السرعة فإنه يستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية وينطلق إلى الفضاء. وإن كانت سرعة الصاروخ أقل من هذه السرعة (ولم تكن على مراحل متعددة) فهو يقطع مسافة معينة ثم يقف، ثم يبدأ بالسقوط والرجوع إلى الأرض لتغلب قوة الجاذبية عليه. ولكل نجم أو كوكب أو قمر سرعة إفلات خاصة به.

٣ ـ ولكن هل سرعة توسع الكون تبلغ سرعة الإفلات؟ أي هل هي أكبر من قوة الجاذبية في الكون أم أقل؟

هذا الأمر مرتبط بالكثافة الحالية للكون. فإن كانت هذه الكثافة تبلغ ما نطلق عليه اسم (الكثافة الحرجة) فمعنى هذا أن قوة الجاذبية الموجودة في الكون تكفي في المستقبل لإيقاف توسع الكون، أما إن كانت أقل فإن الكون سيبقى متوسعاً على الدوام.

٤ - فهل متوسط الكثافة في الكون يبلغ (الكثافة الحرجة)؟

قام العلماء بحساب الكثافة الحرجة فوجدوا أنها تساوي (٤,٧) أي ١٠٢٣٠χغ/ سم٣. وهذا يعني أنه لو كانت هناك مادة في الكون بمعدل ثلاث ذرات هيدروجين في المتر المكعب الواحد لبلغت كثافة الكون (الكثافة الحرجة). ثم قام العلماء بحساب كثافة الكون فوجدوا أنها تبلغ بضعة أجزاء من هذه الكثافة الحرجة.

٥ - هل معنى هذا أن الكون سيستمر بالتوسع، لأن كثافته لا تبلغ الكثافة الحرجة؟

لا يمكننا قول هذا بشكل أكيد، لأن ما حسبه العلماء من كميات المادة الموجودة في الكون كانت الكميات التي استطاعوا مشاهدتها بالأجهزة البصرية والراديوية. وهناك كميات هائلة من المادة لم تدخل في هذه الحسابات، منها على سبيل المثال «الثقوب السوداء» التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً، ثم هناك ما أطلقوا عليها اسم (الكتلة المفقودة) في الكون، فقد لاحظوا أن كمية المادة المشاهدة في المجرات لا تكفي أبداً لإبقاء هذه المجرات متماسكة، بل تحتاج إلى عشرة أضعاف هذه المادة، لكي تبقى في تماسك وتوازن. إذاً فالكثافة المحسوبة للكون ليست هي كثافتها الحقيقية، وقد تبلغ كثافتها الحقيقية (الكثافة الحرجة).

٦ - ماذا يحدث في نموذج (الكون المغلق)؟

تبدأ سرعة التوسع الكوني بالتناقص تدريجياً حتى تبلغ الصفر، أي يقف التوسع تماماً، ثم يبدأ الكون بالاتجاه والتراكض نحو مركزه وبسرعات متزايدة بمرور الزمن.

في البداية لا يظهر هناك تأثير واضح، فكل شيء سيبدو اعتيادياً ولمليارات السنين. ولكن ما إن يبلغ الكون (١/ ١٠٠) من حجمه الحالي

حتى تبلغ درجة حرارة الفضاء ـ التي هي قريبة الآن من الصفر المطلق ـ درجة حرارة الأرض في النهار. وبعد ملايين السنين سيبلغ بريق الفضاء حداً لا يطاق وترتفع الحرارة إلى ملايين الدرجات.

وقبل الوصول إلى هذا الحد يكون جميع أنواع الحياة قد انقرضت وفنيت، ثم تبدأ النجوم بالذوبان في حساء كوني مؤلف من أجزاء الذرات ومن إشعاعات حساء تبلغ درجة حرارته بلايين الدرجات، ثم يصغر الكون ويصغر حتى يبلغ حجم نقطة صغيرة. قريبة من الصفر ويتحول إلى «ثقب أسود». أي يصل إلى حالة (التفردية singularity) حيث تنقطع علاقته مع الزمان ومع المكان، وتعود القوانين الفيزيائية جارية فيه.

ولكن بعض العلماء الملحدين الذين رأوا إفلاس إلحادهم أمام هذه النظرية اقترحوا أنموذجاً ثالثاً للكون هو الأنموذج (النبضي) أو (المتذبذب) وخلاصة هذا المقترح هو أن الكون يتسع منذ الأزل بانفجارات كبيرة (Big Bangs) ثم ينكمش ويتقلص على نفسه، ثم يتوسع بانفجار كبير آخر وهكذا دواليك. إذاً فهنا كون أزلي، لا بداية ولا نهاية له. وقد أعجب بهذا الأنموذج بعض العلماء الملحدين الذين لا يستسيغون فكرة «الخلق» وفكرة«القيامة» أو نهاية الكون[١].

ولكن هذا الأنموذج لم يستطع الوقوف أمام معطيات العلم وأمام الحقائق العلمية، لذا نرى أنه وضع على الرف وتم إهماله تماماً في الأوساط العلمية، لأن العلم لا يعرف أي إمكانية لكي يتوسع الكون بعد تقلصه ووصوله إلى حالة (التفردية) لأن الثقب الأسود مثلاً ـ وهو مثال مصغر جداً عن حالة التفردية التي يبلغها الكون في نهاية المطاف في التقلص ـ لا يستطيع الخلاص من هذا الوضع، فكيف بالكون بأكمله؟ ثم هناك مشكلة أخرى أمام هذا الأنموذج وهي مشكلة (الإنتروبيا Entropy). وهي أنه في كل عملية تحول وتغير هناك قسم من الطاقة يتحول إلى شكل غير قابل للاستفادة منه.

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. مكتبة ابن حجر.

وعندما يصل الكون إلى حالة التفردية لا توجد هناك طاقة قابلة للاستفادة منه. أي يستحيل تحول الكون في هذه الحالة من وضع إلى وضع آخر، إذ لا توجد الطاقة التي يمكنها القيام بهذا التحويل.

إذاً فسواء أكان هناك الأنموذج المفتوح أم الأنموذج المغلق للكون، فالموت هو المصير الذي ينتظر الكون.

ولا يعني هذا أن نهاية الكون ستكون بأحد هذين السبيلين، لأن احتمالات نهاية الكون احتمالات عديدة جداً يمكن أن تملأ كتاباً كاملاً.

هذا عن الكون، أما عن كوكبنا وعن الشمس والمجموعة الشمسية فإن عمرها ليس طويلاً إلى هذه الدرجة، فعمر الوقود في الشمس أقل بكثير من عمر الكون بأجمعه.

نظريات علماء الفلك حول كيف بدأ الكون؟ وكيف ينتهي الكون؟

لقد تم الإجماع بين علماء الفلك مع نظرية بداية الكون وهي لحظة (الانفجار الكبير)، وعلى الرغم من نجاح هذه النظرية في تفسير ظاهرة بداية الكون وتوسعه والإشعاع الناري البدائي وطريقة تشكل ذرات بادية لحد ما، إلا أن أسئلة كثيرة من علماء الفلك صعبة على التفكير لم تستطع تلك النظرية إيجاد حل مناسب لها، وهي:

١ ـ ما الذي كان موجوداً في الفضاء قبل حدوث الضربة الكبرى؟

٢ ـ ما الذي كان يحدث قبل حدوثها؟ وكيف أتت أصلاً المادة الأولى إلى الكون؟

٣ ـ لماذا حدث الانفجار في تلك اللحظة ولم يحدث في لحظة أخرى؟

٤ ـ لماذا ارتبط حدوث هذا الانفجار بنقطة زمنية محددة؟

٥ ـ هل حدث الانفجار في مكان واحد أم حدث في عدة أماكن في الكون؟

٦ ـ لماذا تركزت المادة الكونية الأولى في هذا الكون بالذات، ولم تركز في أكوان أخرى؟ ولماذا تركزت في حجم صغير من الفضاء وبكثافة عالية جداً وبدرجة حرارة عالية أيضاً؟ ومن أين أتى ذلك كله؟ ولماذا؟

٧ ـ ما الذي يمسك هذه البيضة الكونية الأولى ويجعل لها ذلك الشكل المحدد؟ ومن أين أتت؟ وما الذي حفظ لها هذا الشكل؟

٨ ـ ما هو أصل الكون وما هو اتساعه وحدوده وعمره ومستقبله؟ وكانت هناك عدة نظريات للجواب عن هذه الأسئلة.

أولا: نظرية الحالة الثابتة:

في الخمسينيات من هذا القرن ظهرت فجأة نظرية جريئة جديدة،

تحدث بمضمونها وبفكرتها نظرية الضربة الكبرى. ووضع أساس تلك النظرية ثلاثة من كبار علماء الفلك الأفذاذ آنذاك كانوا يعملون في جامعة كامبردج بلندن، وهم (**فريد هويل، وهيرمان بوندي، وتوم غولد**). واستطاعت هذه النظرية المتقدمة أن تتجنب كثيراً من الاعتراضات الفلسفية التي واجهت نظرية الضربة الكبرى؛ مثل عدم إمكانية استيعاب وفهم وإدراك ما قد حدث قبل بداية الزمن بالانفجار الكبير؟ وكذلك من أين أتت أصلاً مادة الكون؟

فالنظرية الجديدة تنص على، أن الكون لا نهائي في الفضاء والزمان، ومجراته موزعة بشكل متجانس عبر الكون، وليس له بداية وسوف لن يكون له نهاية، وسيبقى هكذا من الأزل إلى الأبد بالرغم من أن مجراته ونجومه تموت وتزول لكن تظهر مواد جديدة، وبثبات تعوض المادة التي تفقد فيه.. والمواد الجديدة تلك هي: بروتونات، وذرات هيدروجين طازجة تتوالد في الفراغات بين المجرات ومن لا شيء، أي تنشأ من العدم وببطء شديد، ويتشكل منها ذرات وجزيئات لا يلبث أن يتشكل منها نجوم ومجرات جديدة تنتشر عبر الفضاء ومتباعدة بعضها عن بعض، ويتم ذلك بشكل دائم ومستمر بثبات، كي تسد الفراغات التي تتركها المجرات المتباعدة، لذلك دعيت هذه النظرية بنظرية الحالة الثابتة.

وفق هذه النظرية ليس هناك من داعٍ للسؤال عن بداية أو نهاية الكون، لأنه دوماً موجود ولا يزال (أزلي الوجود وسرمدي البقاء)، كما لا يوجد داعٍ للسؤال عن أصل المادة لأنها تتولد فيه باستمرار من العدم المعتدل والحيادي. فلا يحدث فيه أي تغير جذري أو تبديل خلال الدهور والأزمان؛ فهو في حالة وسطية لا متبدل ولا زمني ولا عمر له، وخالد لا يحيط به زمن ولا يخضع لتوقيت.

حسب رأي العلماء: تُقدر كمية الهيدروجين المخلوقة في كل سنة بحيث تبقى كثافة المادة ثابتة في أرجاء الكون رغم تمدده، وبمعدل ذرة هيدروجين واحدة في كل جزء من الفضاء بحجم بناية الإمباير ستيت (وهي أعلى ناطحة سحاب في أمريكا).

تتصدى هذه النظرية لنظرية الانفجار الكبير التي تفترض حدوث

انخفاض للكثافة الوسطية لمادة الكون بسبب التمدد من اللب الأصلي للكون، إذ تنفي نظرية الثبات أي تمدد لأنه لا وجود للتمدد أصلاً حسب رأي هذه النظرية.

رغم نجاح نظرية الثبات في حل بعض المعضلات الفلسفية، إلا أنها تعارضت وبشكل واضح مع بعض الفيزيائية الأكثر أهمية في هذا الكون، ويخضع لها جزء من أجزائه وبدون استثناء، وهي:

١ ـ **مبدأ انحفاظ المادة والطاقة:** وهو ينص على أنه لا يمكن خلق المادة أو تدميرها وإزالتها من الكون. أي: ينص على عدم خلق المادة وإيجادها من لا شيء، وكذلك لا يمكن تدميرها وإلغاؤها من هذا الكون، مع أنه يمكن تحويل الطاقة لمادة وبالعكس، لكن دون فناء كامل لهما معاً لأن مجموعهما يجب أن يبقى ثابتاً دوماً.

٢ ـ **مبدأ انحفاظ كمية الحركة:** وينص على أن لكل فعل رد فعل إذا كانت الجملة معزولة ميكانيكياً، أو بحكم المعزولة ميكانيكاً، وهذا لا يتحقق إلا إذا كانت محصلة القوى الميكانيكية المؤثرة على الكون كله معدومة. أي يجب أن يكون الكون غير خاضع لأي مؤثر خارجي، لأن مجموع هذين التأثيرين (الفعل ورد الفعل) يجب أن يكون معدوماً، فحركة مجردة متباعدة لا بد أن يكون رد فعل لشيء وقد حدث فعلاً، وإلا لما تباعدت المجرات أصلاً بعضها عن بعض، وإلا تحرك الكون كله باتجاه ما دون اتجاه آخر، ولما تحقق لمجرته حركة تباعدية متناظرة في كل الاتجاهات؛ كما هومشاهد من خلال الأرصاد الفلكية.

وهكذا نجد أن هذه النظرية قد تخطت أهم المبادئ الفيزيائية وأبسطها والمألوفة لنا من خلال خبرتنا اليومية وبما نشاهده في أرصادنا للأجرام الكونية الأخرى.

إن مثل هذا التخطي والتجاوز لأبسط مبادئ الفيزياء، وهما مبدأ انحفاظ الطاقة والكتلة، وكذلك مبدأ انحفاظ كمية الحركة وضعا تلك النظرية

في وضع حرج جداً، مما أعطى العلماء المبررات القوية لرفضها وعدم الاعتراف بها نظرية علمية يوثق بها.

ولا شك أن من العلماء من رفض هذه النظرية ومنهم من أيدها وقبلوا بها كي يصلوا إلى استقرار فكري وراحة نفسية، ولتهدئة عملية التوسع في الدراسات الفلكية، فعملية التأمل والتفكير في كون ثابت يحدد نفسه أزلياً وتلقائياً ولا نهائي في بدايته ونهايته هي من الأمور التي تريح تفكير كثير من الناس ولا تقلق تفكيرهم في البحث عن أجوبة صعبة لأسئلة تبدو لهم جوفاء، ومن بين هؤلاء العلماء الذين دعموا هذه النظرية الفيلسوف الإيطالي **أرنست ماخ** من البندقية. وربما يكون هؤلاء الذين قبلوا بهذه النظرية هم أولئك الوجوديون الذين قالوا: بأزلية المادة لنفي الخلق عن الخالق، وهؤلاء وجدوا معارضة كبيرة جداً لتأكيدهم أزلية المادة.

نظرية الكون المهتز:

بعد مرور عقد على عام ١٩٦٠م، حدث تقدم كبير في علم الفلك الحديث على يد البروفيسور **(فريد هوبل)** وهو أستاذ في جامعة كامبردج بلندن، حيث ظهرت اكتشافات جديدة لأجسام وحوادث تجري في أعماق الكون جعلت الرأي العام ينزاح وينجذب ثانية إلى نظرية الضربة الكبرى. فلقد استطاع (هوبل) أن يكشف أجساماً عرفت بالكواسارات، وهي نجوم وحيدة ظاهرياً وتحترق بشدة كبيرة جداً، وتطلق طاقة تعادل بليون نجم من الحجم المتوسط، وغاية في السعة ولربما وقعت عند حافة الكون، لذلك تبدو ضعيفة لا يمكن اكتشافها إلا بالتلسكوبات الراديوية القوية. وعلى كل حال فإن الأرصاد بالتلسكوبات الضوئية والراديوية القوية للمجرات وصلت حتى أعماق عشرة آلاف مليون سنة ضوئية بعداً عنا، وأعطت نتائج تشير إلى أن المجرات المجاورة لنا كانت قديماً أقرب لبعضها مما هي عليه اليوم، والضوء الوارد من عمق عشرة بليون سنة ضوئية يرينا الترتيب المجري القديم عندما كان الكون حديث الولادة.

أتى ذلك دعماً لنظرية الضربة الكبرى (الانفجار الكبير)، وتحدياً صارخاً لنظرية (ثبات الحالة)، فقام **(هوبل)** بوضع نظرية جديدة للتوفيق

بينهما، وهي نظرية (الكون المهتز) فكانت وسطاً بين النظريتين السابقتين. حيث احتفظت هذه النظرية بفكرة الكون السرمدي الذي لا يحول ولا يمر عليه زمان، وليس له بداية ولا نهاية، والمادة تتولد فيه باستمرار وبثبات بين المجرات ليعوض المجرات والنجوم التي تزول بموتها بعد تباعدها.

وتتوافق هذه النظرية أيضاً مع نظرية الضربة الكبرى (الانفجار الكبير)، في حقيقة أن هذا الكون يتوسع، إذ أثبتت الأرصاد الحديثة حقيقة تباعد المجرات وتوسع الكون كما تتباعد النقاط المرسومة على سطح بالون أثناء نفخه. وأن معدل زمن التمدد الكوني يزيد على ١٣,٥ مليار سنة.

من أسباب اقتراح هذه النظرية الجديدة هي أن نظرية الضربة الكبرى (الانفجار الكبير) لم تقر بأية نهاية للكون، باعتبار أن التمدد الكوني سوف يستمر إلى الأبد بدون توقف، وكأنه لا توجد قوى لها فعالية تتدخل في عملية التوسع عدا قوة انفجار الضربة.

توقع (**هوبل**) أنه ربما برزت في المستقبل قوة لم تكن ذات فعالية في يوم ما، فإذا بها تطغى بفعاليتها وتقوم بإيقاف عملية التمدد، عند ذلك تعمل على جر الكون في الاتجاه المعاكس، بعد حدوث توازن بين الاندفاع الخارجي للانفجار البدائي وقوى التجاذب الثقالية نحو الداخل. أي سوف يتوقف التمدد لفترة زمنية، لكن بعد فترة قصيرة الأمد سيحدث جر داخلي لتلك المجرات بعضها نحو بعض بحركة بطيئة في بدايتها، ثم تتسارع في اندفاعاتها نحو الداخل بعدئذٍ، بحيث يحدث تداخل واندماج لمكونات الكون مؤدياً ذلك لتزايد هائل في الضغط والارتفاع الحراري، ليعود الكون لحالته الهيولية التي انبثق منها أول مرة قبل عدة بلايين من السنين.

وفق هذه النظرية فالكون سوف يعيد الكرة وينفجر ثانية وثالثة وهكذا.

فالكون يخضع بأكمله لدورة منتظمة من عمليات التمدد والتقلص تحدث فيه ضربة كبرى كل ٨٠ مليار سنة.

كيف يمكن التحقق من نظرية الكون الهزاز؟

لقد تم التوصل إلى جواب هذا السؤال عن طريق معرفة كثافة مادة الكون التي ستجعله يقف عند حد معين في تمدده وتجعله يبدأ بالتراجع

والانكماش. وقام العلماء بإجراء حساباتهم في هذا الموضوع فتبين لهم أن الكثافة الحرجة (الحدية) لمادة الكون يجب أن تكون من رتبة ٥×١٠^{-٣٠} غ/ سم٣ كي يبطئ الكون في تمدده ثم التوقف عنه. وهذه القيمة الحدية لكثافة المادة الكونية توافق وجود بروتون أو ذرة هيدروجين واحدة في حجم مقداره نصف متر مكعب، لأن الكثافة في هذه الحالة هي الفيصل الحاسم بين النظريتين.

فإذا كانت كثافة مادة الكون كبيرة وبشكل كاف، فإن الكون سيتوقف في نقطة معينة ثم تنعكس الحركة إلى عملية تقلص وبالتالي فالكون هزاز. أما إذا كانت الكثافة قليلة فلن تستطيع قوى الجاذبية إيقاف تمدد الكون عند نقطة معينة وسوف يستمر للأبد، وستغدو السماء مظلمة لا ترى فيها أجرام سماوية مضيئة، ويعتبر هذا في صالح نظرية الضربة الكبرى.

إن كثافة مادة الكون المرئية الآن بافتراض تجانس توزعها هي من رتبة ٥×١٠^{-٣٣} غ/ سم٣، وهي أقل بألف مرة من الكثافة الحرجة. أما إذا أدخلنا أيضاً المادة اللامرئية وكل الإشعاعات وطاقاتها باعتبارها تكافئ كتلة، وحسب علاقة أينشتاين الشهيرة وهي:

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء.

فإن الكثافة ستبقى أقل بعشر مرات من الكثافة الحرجة، ذلك أنه يوجد في كل مجرة مواد لا مرئية أكثر بثلاثين مرة من مادتها المرئية.

وأخيراً لربما كان في الفضاء مناطق تحتوي موادّ لا مرئية أو ربما كانت هناك حوادث اندماج، ومثل تلك الأمور قد تحقق الكثافة الحرجة للكون فتوقفه عن توسعه، والمعلومات التي تم التوصل إليها لا تشير إلى أن الكون سوف يتوسع إلى الأبد؛ وهذا يتوافق مع الآية الكريمة.

جري الشمس والقمر لأجلٍ مُسَمًّى دليل على نهاية الكون كله

يقول تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

[سورة الرعد، الآية: ٢]

وقد تكررت هذه الآية في كل من السور الآتية (سورة لقمان الآية ٢٩)، (وفي سورة فاطر الآية ١٣)، (وفي سورة الزمر الآية ٥)، وهذا دليل على تأكيد المعنى أن الشمس والقمر يجريان لأجل مُسَمًّى سماه اللّه سبحانه وتعالى عنده لا علاقة له بتقدير العلماء في أن المواد المشعة في الشمس قادرة على الاستمرار قرابة خمسة مليارات سنة ونصف أخرى، فاللّه هو الخالق وهو الذي ينهي حياتها متى شاء ويوقف تفاعلها النووي وينهي غازها وموادها المشعة في لحظة واحدة.

وهنا تبرز فكرة الأجل المسمى لجريان الشمس، وهذا الأجل مرتبط بفكرة لوصول الشمس إليه (والمكان مرتبط بالزمان).

وهذا المكان يسميه القرآن المستقر كما في قوله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

[سورة يس، الآية: ٣٨]

ونستنتج من هذه الآية بعض الحقائق كما يلي:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى ﴾.

[سورة يس، الآية: ٣٨]

حقيقة مذكورة قبل آية السباحة في فلك (يس: ٤٠)، وتتصل الآيتان

بحرف عطف (و)، وهذا يدل على أن الشمس تتحرك حركة انتقالية بالإضافة إلى سباحتها في فلك خاص بها.

ولقد اتضح حديثاً أن الشمس مع نظامها الشمسي تتحرك أيضاً في الفضاء حركة نحو نقطة تقع في **كوكبة هرقل** مجاورة لنجم يدعى **فيجا** وتحددت تماماً أحداثياتها. وأمكن تحديد سرعة جريان الشمس في هذه الحركة بحوالي ١٢ ميلاً/ ثانية.

والآية القرآنية (يس:٣٨) المقتبسة هنا تتحدث فعلاً عن الشمس وهي تجري نحو مكان خاص بها (لمستقر لها)، وربما يحدد علم الفلك الحديث بشكل كامل في المستقبل هذا المكان الذي يسميه العلماء أيضاً (مستقر الشمس).

القرآن الكريم يعطي أيضاً حداً لتطور الشمس ومكاناً لوصولها! ولكي نفهم المعنى الممكن لهذه المقولات يجب علينا التذكير بالمعارف الحديثة في تطور النجوم عامة والشمس خاصة والإلمام بالتشكيلات السماوية التي تتبع بالضرورة حركة الشمس وتطورها في الفضاء، بما في ذلك تطور القمر كجزء من المجموعة الشمسية.

وهذه الحركات كلها لم تكشف كلها إلا بعد قرون من نشر نظرية **كوبرنيكوس**.

ولتوضيح ذلك نعود إلى قول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٣]

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

[سورة يس، الآية: ٤٠]

وهنا يقر القرآن حقيقة هامة وهي: وجود مدار مستقل لكل من الشمس والقمر، علاوة على التحرك بطريقة تشبه السباحة في المدار، وفيما يختص بالشمس فإن مجرد تصور وجود مدار الشمس أمر صعب للغاية فنحن معتادون منذ نظرية كوبرنيكوس على النظر إليها كمركز ثابت

للمجموعة الشمسية حيث تدور الكواكب حولها! . ولكن لكي نفهم وجود مدار خاص للشمس طبقاً لنص الآيات القرآنية، فإننا يجب علينا النظر في موقع الشمس داخل مجرتنا ونستعين بالتالي بأحدث ما وصل إليه العلم في العصر الحديث!

تتكون مجرتنا من عدد هائل من النجوم يصل إلى ٢٠٠ مليار نجم! موزعة على قرص هائل منتفخ في المركز، وتقع الشمس (نجمنا) في طرف هذا القرص. ويقع مركز المجرة في اتجاه برج القوس حيث نلاحظ في السماء سحباً كثيفة من الغاز والتراب الكوني مملوءة بالنجوم التي لا حصر لها. وتتوزع النجوم بحيث تكون مركزة في المركز، وأما أطراف المجرة فتوجد أرض حلزونية من النجوم والغبار الكوني، ولقد حسب الفلكي **شابلي** عام ١٩١٧م البعد بين الشمس ومركز المجرة بحوالي ١٠ كيلو فرسخ، أي: ما يعادل الرقم ٢ وعلى يمينه سبعة عشر صفراً بالكيلومترات! ولقد تم رسم هذه المجرة حديثاً بالاستعانة بالفلك الراديوي، وتأكد لنا أن المجرة تدور بجميع أجرامها في باطنها! لذلك تدور المجرة لتحافظ على شكلها الحالي ولكن هذا الدوران ليس كقرص متماسك ولكن كل نجم له فلك خاص به حول مركز المجرة؛ (لاحظ التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾).

والشمس تستغرق ٢٥٠ مليون سنة لتدور في فلكها دورة واحدة حول مركز المجرة! وتجري الشمس في هذه الحركة المدارية بسرعة خطية قدرها ١٥٠ ميلاً/ ثانية.

تلك هي الحركة المدارية للشمس، والتي صرح بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً.

تبدو النجوم والشمس في القبة السماوية كما لو كانت تدور من الشرق إلى الغرب يومياً، ولكن هذه الحركة ظاهرية خادعة، لأن الأرض هي التي تدور بالفعل (من الغرب إلى الشرق) حول محورها مرة كل يوم!

ولقد اعترض الناس على هذه النظرية في البداية لأن حركة الأرض تتعارض مع الإحساس العام للعقل البشري، وتصطدم أيضاً مع تعاليم

الكنيسة لأن فقرات الإنجيل تصف الشمس على أنها تتحرك كما ورد في أقوال الإنجيل:

(تشرق الشمس وتغرب).

(الشمس كالرجل القوي تجري بمرح في مسارها).

وبذلك كان الإعلان بتحرك الأرض بينما الشمس ثابتة نسبياً طبقاً لنظرية كوبر نيكوس سبباً في إثارة احتجاج شديد وجدل دام لمائة سنة، حيث أنكر معظم الناس حركة الأرض وتزعمت الكنيسة جبهة المعارضة، ولكن كوبر نيكوس وأنصاره أصروا على أقوالهم بأن الأرض تتحرك فعلاً، وإن كاتب الإنجيل من البشر قد أخطأ لأنه لا يهتم بالفلك في كتاباته!

وعلى سبيل المقارنة فإننا بالرجوع إلى القرآن الكريم سوف نستنتج ما يلي:

١ ـ القرآن لم يدافع مطلقاً عن مركزية الأرض وسكونها الظاهري، رغم أن الوحي نزل في وقت سادت فيه هذه النظرية الخاطئة دون منافسة! وعلى العكس فقد أشار القرآن بأسلوب غير مباشر إلى حركة الأرض.

٢ ـ لقد أدخل القرآن الكريم مفهوماً جديداً في آية قرآنية خاصة، وذلك بالإشارة إلى دوران الشمس في فلك خاص بها! بالإضافة إلى آية أخرى تشير إلى حركة الشمس وجريانها(١).

وعموماً فإن الكون كله لا يعرف السكون فالكل يجري لأجل مسمى، ولقد بين الله سبحانه وتعالى بأنه يسخر الأجرام بعد تمام خلقها بحركة جري فوق حركة سباحتها في فلكها، وقبل أن نشرح الآيات التي تعرضت لهاتين الحركتين المختلفتين أي الجري والسباحة لا بد أن نميز بينهما، فكلاهما حركة انتقالية فما هو الفرق بينهما قرآنياً؟

معنى الجري:

(قال الراغب): الجري أصل معناه: المرور السريع، وأصله: كمر الماء يجري بجريه، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾،

---

(١) القرآن الكريم والعلم الحديث صفحة ٢١٤ ـ ٢١٥.

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ وقال الزمخشري: والشمس تجري والريح تجري، واستعمل القرآن لفظ (يجري أو تجري) لغير الأجرام السماوية بمعنى الانتقال السريع بدون حركة ذاتية من الجسم المتحرك، كحركة الماء في الأنهار في الجاذبية (تغير طاقة الوضع) من المنبع إلى المصب، كما في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، وكحركة الفلك الشرعية التي تجري بدفع الماء أو الرياح كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، وكحركة الرياح كما في قوله عز وجل ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾، وبهذا فإن القرآن استعمل الجري بمعنى الانتقال السريع بدون حركة ذاتية، أي: بالدفع أو السحب أو أي وسيلة ناتجة عن الأمر الإلٰهي الذي يدبره اللّه ويملأ هذا الكون.

جري وسباحة الشمس والقمر:

لقد عبر تعالى عن حركات الشمس والقمر والنجوم بل والأجرام السماوية عموماً بلفظين مختلفين، مما يوحي لنا بأن السبح والجري لهذه الأجرام ليس بمعنى واحد كما أوضحنا في السابق، ولقد شاء اللّه تعالى أن يوضح للناس تفصيل تسخير كل من الشمس والقمر مع الأرض لغايتين: أولاهما: ليبين لهم أن هذا التسخير تقوم عليه حياتهم ومصالح معيشتهم دليلاً على بالغ حكمته ورحمته في الخلق والتدبير بصفة عامة، والثانية: ليزيد العلماء من الناس علماً بنظام موحد لتسخير جميع أجرام السماء بالحركة أسوة بنظام تسخير المجموعة الشمسية التي هي واحدة من بلايين المجاميع الشمسية في الكون، وتحقيقاً لهذه الأغراض الحكمية يقول تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

[سورة يس، الآيات: ٣٧ ـ ٤٠]

ولقد بدأ تعالى هذه الآيات بقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، مع أنها مكونة من أربع آيات مختلفة تعطي كل منها على عدة دلائل وبراهين على قدرته

وحكمته تعالى، فجاءت هذه البداية إشارة قوية وواضحة إلى أنه تعالى إنما يتحدث عن أحوال الشمس والقمر والأرض، وهي جميعاً مسخرة في مجموعة واحدة يعمل بعضها مع بعض فيما نسميه المجموعة الشمسية التي تمثل في مجموعها آية واحدة معشر البشر السكان الوحيدين في هذه المجموعة.

وبدأ تعالى بقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ وهذه الآية توضح قضيتين:

أولاً: أن الشمس تجري جرياً حقيقياً وليس ظاهرياً.

ثانياً: أنها تجري لمستقر لها.

والنهار! وهذا طبعاً خروج عن معنى النص، ولهذا فإنني أعتقد أن الليل والنهار لا معنى لهما في هذه الآية إلا بالمجاز المرسل الذي يجعلنا لغوياً نبحث عن لازمين من لوازم الليل والنهار، يعقل فيهما السبح ويتحقق بهما معنى كل في قوله ﴿وَكُلٌّ﴾. وحيث أن لوازم الليل والنهار هما الظلمة والضياء أو مكان الحدوث (الكوكب)، أو السبب فيهما أي الأرضون والنجوم لليل والنهار على الترتيب.

وحيث أن دوران مكان الحدث **(الأرض)** يحدث تعاقب وسباحة الليل والنهار في فلك واحد مشترك حول نفس الأرض، فإن الأرضين **(وهي سبب لمكان الليل)** والنجوم **(وهي سبب النهار)** تدخل مجازاً في معنى الوصف الشامل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ لأنها جميعاً أجرام مادية يمكن أن تسبح مستقلة بعضها عن بعض في فلك خاص بكل منها، وبهذا فإن تأويل الآية الأخيرة يصبح كما يلي:

أنه تعالى خلق جميع الأرضين **(سبب الليل)** وجميع النجوم **(سبب النهار)** وشمسنا وقمرنا المعهودين لنا بل وجميع الشموس والأقمار، كل منها يسبح في فلك خاص به.

وحكمته تعالى في استعمال الليل والنهار مجازاً في هذه الآية مع قصد السبب في كل منهما، وفي اقتصار التعبير القرآني على ذكر الشمس والقمر

في هذه الآية أن الناس لا يرون سواهما يتحركان بحركة ظاهرية، في السماء تفسر لهم ظاهرياً عبارة ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بينما المقصود علمياً هو السباحة الحقيقية لكل جرم في فلك خاص به، وليس الحركة الخادعة للشمس من الشرق إلى الغرب، ولكن المقصود في حركة ذاتية حقيقية في مدار مصحوبة بحركة ذاتية من الجرم نفسه طبقاً للمعنى السابق لعملية السباحة، ولقد ثبت علمياً أن الكواكب بما فيها الأرضون والأقمار والشموس (النجوم) التي تملأ الكون يسبح كل منها في فلك (مسار دائري) خاص به، وفي نفس الوقت يدور حول محوره حركة ذاتية أثناء الدوران في الفلك، فالأرض مثلاً تدور حول نفسها وحول الشمس، وإنني أرى أن الأرض مشار إليها في هذا الطواف بأنها تسبح في فلك معبراً عنها بالليل والنهار مجازاً بإطلاق الصفة على الموصوف والظرف على المظروف! والقمر مثلاً يدور حول نفسه وحول الأرض، والشمس تدور حول نفسها وحول مركز المجرة، وكل هذه التحركات سباحة بالمعنى القرآني البليغ، هذا بالإضافة إلى جريان سريع لكل هذه الأجرام في الفضاء الكوني في مرحلة التسخير.

ونواصل تفسير الآيات (يس: ٣٧ ـ ٤٠) والتي بدأت بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾ وانتهت بالتعبير القرآني الشامل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وبهذا عطف الله سبحانه وتعالى سباحة الشمس في فلكها الخاص على جريها لمستقرها، وعطف شيء آخر يدل لغوياً على مغايرته له، ولو كان فلكها ثابتاً في الفضاء بحيث يكون جريها لمستقر لها هو عين سبحها فيه، لما تحقق معنى الجري إلى مستقر لم تبلغه الشمس بعد، لأنها في فلكها الدائري حول مركز المجرة قد مرت على كل نقطة فيه في كل دورة! ونحن نعلم علمياً أن زمن دورتها في هذا الفلك ٢٥٠ مليون سنة، ومعنى هذا: أنها أكملت منذ خلقها حتى الآن عشرين دورة كاملة على اعتبار أن خلق الشمس تم منذ خمسة مليارات سنة، وبهذا فلا توجد نقطة في فلكها حول المجرة لم تبلغه بعد. وبذلك فإن جريها لبلوغ مكان تستقر فيه لا يتحقق بمجرد سبحها في فلك ثابت غير منتقل في الفضاء، بل إنه يتحقق إذا كانت تسبح في فلك بشرط أن تكون السباحة مقرونة

بحركة جري أو انتقال سريع لهذا الفلك في الفضاء، لكي تبلغ بهذا الجري والمستقر المقدر لها.

وبهذا فإن جري الشمس مقرون بسباحتها في فلك.

وهذه الحركة تشبه مثلاً حركة شخص في دائرة ثابتة على سطح سفينة تجري في نفس الوقت في الماء، فيقال: إنه يسبح في فلك خاص على ظهر السفينة، على حين هو في الوقت نفسه ينتقل أو يجري بالنسبة للماء الذي تجري فيه السفينة.

ولقد أثبت العلم كما ذكرنا أن الشمس تجري في الفضاء بسرعة ١٩ كيلومتراً في الثانية نحو النجم النسر الواقع، وفي نفس الوقت فإنها تسبح حول مركز مجرة درب التبانة بسرعة تلقائية انتقالية في المدار قدرها ٢٢٠ كيلومتراً/ ثانية لتكتمل هذه الدورة كل ٢٥٠ مليون سنة!.

وبالرجوع لآيات (يس ٣٧ ـ ٤٠) نجد أن اللّه بعد تقرير حقيقة جري الشمس لمستقر لها قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

فبين لنا بذلك أنه جعل القمر في فلكه حول الأرض يظهر من الأرض بأوجه من النور تزيد ثم تنقص تدريجياً وبانتظام في كل دورة، كما هو مشاهد لنا: من هلال فتحته نحو اليسار عند الأفق الغربي (القمر والشمس يكونان غرب الأرض)، ثم يتدرج الجزء الظاهر من القمر أو الهلال في الكبر مع دوران القمر حول الأرض ويصبح ما يسمى بالتربيع الأول بعد سبعة أيام، ثم يتدرج حتى يصبح بدراً كاملاً، عندما تكون الأرض بين القمر والشمس بعد سبعة أيام أخرى، ثم يستمر القمر في دورته فيكون التربيع الثاني في نهاية الأسبوع الثالث، ثم يظهر كهلال فتحته نحو اليمين في الأفق الشرقي عند الفجر في نهاية الأسبوع الرابع من بداية الدورة حول الأرض، ثم يأتي طور الاختفاء أو المحاق حين يختفي القمر لمدة يوم أو أكثر، ويظهر كهلال جديد مرة أخرى في الأفق الغربي، وهكذا تتكرر المنازل كل شهر قمري دليلاً على انتظام دوران القمر حول الأرض وتلازمهما لكي يستمر انتظام ظهور أوجه القمر، حتى يعود

كالعرجون القديم، أي كعود الشماريخ إن أعتق فإنه يرق ويتقوس ويصغر دليل على نهاية الدورة الشهرية للقمر.

وأما قوله تعالى:

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

أي: أنه جعل الشمس في جريها السابق ذكره لا تدرك القمر، أي: لا تلحق به، وهذا وصف دقيق، لأن القمر يدور حول الأرض التي بدورها تدور حول الشمس التي تدور بدورها بهم في فلكها حول مركز المجرة والتي أيضاً تدور بالمجموعة كلها في الفضاء الكوني، وبهذا فإن القمر يجري مع جريان الشمس كأحد ركاب مجموعتها طبعاً بنفس سرعة الجري المشار إليها سابقاً ١٢ ميلاً/ ثانية (أي ١٩ كيلومتراً/ ثانية)، لأن القطار واحد وهو الشمس بينما الركاب هم الأرض والقمر وباقي كواكب وأقمار المجموعة الشمسية، ومعنى هذا أن اللَّه سبحانه وتعالى جعل سرعة الشمس في جريها لا في سبحها لا تزيد على سرعة القمر في جريه (لا في سبحه)، وبالتالي لا تزيد على سرعة الأرض في جريها لأن الشمس ملازمة لهم جميعاً.

وتستطرد الآيات بقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

وعبارة (وكل في فلك يسبحون) تعني من ظاهر الآية: أن كلاً من الشمس والقمر والليل والنهار يسبح في فلك خاص به بسرعة دورانية خاصة به، وحيث إن الليل والنهار كما ذكرنا من قبل لا يعقل فيهما السبح (على اعتبار المعنى الزمني لهما) فإنهما في هذه الآية قد استعملا استعمالاً مجازياً (مجاز مرسل)، مقصود به لازم من لوازمهما، والقرينة على هذا القصد ﴿وَكُلٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ ولهذا فإن المعنى:

لا الشمس ينبغي لها أن تزيد سرعة جريها على سرعة جري القمر، ولا مكان أو سبب الليل **(كوكب الأرض)** سابق سبب النهار **(الشمس)** في الجري المشترك باستخدام لوازم المكان بدلاً من الزمان، كما سبق أن أوضحنا أي: ولا الأرض الملازمة للقمر تسبق الشمس، تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح في فلك خاص بسرعة

دورانية خاصة في فلكه، ولقد ثبت أن الشمس تسبح في فلكها حول مركز المجرة بسرعة ٢٢٠ كم/ ثانية، وأن الأرض تسبح في فلكها حول الشمس بسرعة حوالي ٣٠ كم/ ثانية، وأن القمر يسبح في فلكه حول الأرض بسرعة قدرها ١ كم/ ثانية، وكل منهم يدور حول نفسه أثناء سباحته في فلكه، ولهذا سميت الحركات الثلاث سباحة وليست جرياً تمييزاً لها عن الجري المشترك لهم بسرعة واحدة في الفضاء الكوني بسرعة جريان الشمس ١٩ كم/ ثانية.

الفصل الثالث

ـ نهاية الكون والحياة والإنسان في القرآن الكريم.

ـ نهاية الكون مرهون بنهاية حياة الإنسان على الأرض.

ـ علماء الفلك في مؤتمر (بروكسل) بلجيكا عام ١٩٩٠م يؤكدون أن الإنسان في هذا الكون آخر المخلوقات خلقاً.

ـ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تؤكد أن الساعة قريب وأن الإنسان خلق في المرحلة الأخيرة من عمر الكون.

نهاية الكون والحياة والإنسان في القرآن الكريم

. . . وعد اللّه سبحانه بأن يجعل للكون نهاية كما خلقه سبحانه فإنه سوف ينهيه ويطويه ذلك أن اللّه سبحانه لم يخلق شيئاً إلا وجعل خاصية فنائه وموته فيه. . فقد خلق النجوم وجعل فيها خاصية الفناء وخلق الإنسان وجعل فيه خاصية الموت ونهاية الحياة على الأرض، وكل خلق خلقه اللّه سبحانه سواء كان جماداً أو روحاً كتب عنده أن له أجلاً معلوماً لن يتجاوزه بكل الاحتمالات.

ولقد خلق اللّه سبحانه الجنات من فوق سبع سموات وجعلها دار القرار الأبدي وجعل فيها عوامل البقاء السرمدي وجعل كل ما خلقه فيها أو ينتقل إليها من البشر خالداً لا فناء له. . إذ إن الحياة لها قانون، والآخرة لها قانون، فقانون الدنيا الفناء وقانون الآخرة البقاء سواء في الجنة وسواء في النار.

يقول تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٣٩]

وقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٨٢]

وأمر الموت والفناء والنهاية لكل شيء من سنة اللّه سبحانه في الخلق ولذا نسمع في كل يوم من علماء الفلك أن نجماً مات في السماء وابتلعه الثقب الأسود وهذا حال النجوم في السماء موت وحياة ثم فناء. . ونحن بأم أعيننا على سطح هذه الأرض نرى كيف تفنى الأشياء حتى

الجبال تتآكل على مر الزمن من عوامل الحت والتعرية التي تصيبها حتى ما نشيد من قصور وعمارات ضخمة وجميلة وضع الإنسان فيها كل لمسات الفن والجمال تتحول في يوم إلى أنقاض ورماد.. وكم من عمارات شيدت نراها اليوم آيلة إلى السقوط؟! وكم مات أمام أعيننا من البشر والحيوانات تصبح جميعاً بعد حين رفاتاً وعظاماً وتراباً، وكم فتحت قبور أمام أعيننا مضى على موت أصحابها ودفنهم فيها أعواماً طويلة قد تحولوا إلى عظام فإذا ما تعرضت العظام إلى الهواء والشمس ولطول زمنها تتفتت ثم تحولت إلى رميم وتراب..

فما جعل سبحانه البقاء والسرمدية في الدنيا لأحد أو لشيء أبداً.. ولكن ما نشاهده في الدنيا موت وفناء متدرج ذلك أن الحياة لم تنته على الأرض فمن يموت يعوض بولادة غيره والنجم الذي يموت يعوض بولادة نجم جديد.. ولكن إذا ما جاءت الآخرة وأمر اللَّه سبحانه أن تنتهي الحياة على الأرض تقوم الساعة ويصعق اللَّه سبحانه كل من كان حياً من خلقه على هذه الأرض سواء كان جناً أو إنساناً أو حيواناً.

يقول تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

وفي الآيات الكريمة استفاضة حول وعد اللَّه سبحانه بأنه هو بدأ الخلق ثم يعيده ثم ينشئ النشأة الآخرة.

سبحان اللَّه هذه المليارات من المجرات والنجوم والكواكب والأقمار المضيئة سيقبضها اللَّه وينهي كل أشكال الحياة عليها بل لن تجد فيها أثراً بعد عين إذ تطوى طياً وتكور وتلف ويذهب بريقها بعدما كانت زينة السماء وبهجة السماء ونور السماء ومصابيح تتلألأ وتشع كالسراج المنير.

يقول تعالى:

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ١٢]

هذه السموات ذات الحبك كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ .

[سورة الذاريات، الآية: ٧]

والشداد كما قال تعالى:

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

[سورة النبأ، الآية: ١٢]

والتي ليس فيها فطور أو خلل كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ .

[سورة الملك، الآية: ٣]

وقد قدَّم اللَّه سبحانه مشاهد ما يقع لهذه السماوات وهذه النجوم يوم تقوم الساعة يقول تعالى:

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ .

[سورة التكوير، الآيتان: ١ ـ ٢]

فيشق اللَّه سبحانه حبكتها ويمزق شدتها يقول تعالى:

﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ .

[سورة الحاقة، الآية: ١٦]

وقد نوع اللَّه سبحانه في وصف السماوات والأرض يوم القيامة وتحديداً عند قيام الساعة فتارة يقول عنها أنها تمور ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ .

[سورة الطور، الآية: ٩]

وتارة يقول عنها أنها فرجت ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ .

[سورة المرسلات، الآية: ٩]

وتارة يقول عنها أنها فتحت ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ .

[سورة النبأ، الآية: ١٩]

وتارة أنها كشطت ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ .

[سورة التكوير، الآية: ١١]

وتارة أنها انفطرت ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ .

[سورة الانفطار، الآية: ١]

. . وأما عن الأرض وجبالها وبحارها وما عمره الإنسان فيها من زينة وزخرف فإنها جميعاً يوم القيامة تسوى بالأرض فلا نرى جبالاً ولا بحاراً ولا عمارات ولا حدائق ولا غابات إنما جميعها تتحول إلى تراب قبل أن يقبضها اللّه سبحانه بيده.

يقول تعالى عن حال الأرض يوم القيامة:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾.

[سورة الحاقة، الآيتان: ١٣ ـ ١٤]

ويقول تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

[سورة الزلزلة، الآيتان: ١ ـ ٢]

وعن الجبال يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

[سورة طه، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٧]

وقال تعالى:

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

[سورة المزمل، الآية: ١٤]

وقال سبحانه عن البحار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

[سورة التكوير، الآية: ٦]

ويقول تعالى أيضاً عن حال البحار يوم القيامة:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

[سورة الانفطار، الآية: ٣]

والآيات الكريمة بالعشرات التي توصف حال السماوات والأرض عند قيام الساعة وأما كيف وعد اللّه سبحانه بطيها وقيضها وإعادتها كما بدأت من لا شيء فأصل كل السموات والأرض وما فيها من نجوم وكواكب وأقمار خلقت كما يقول علماء الفلك من بيضة كونية لا يعلم قوتها إلا اللّه سبحانه انفجرت وكونت خلال مليارات السنين المجرات والنجوم والأرضين . .

قال تعالى:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

ويقول تعالى:

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

[سورة يونس، الآية: ٤]

ويقول تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ ﴾ .

[سورة يونس، الآية: ٣٤]

ويقول سبحانه:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

[سورة يونس، الآية: ٣٤]

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ .

[سورة الروم، الآية: ٢٧]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تؤكد أن اللّه سبحانه كما بدأ الخلق فإنه سيعيده كما بدأ.

ولنستمع إلى رأي بعض المفسرين حول إعادة الخلق كما بدأ وما معنى إعادته وأن يعود كما بدأ.

يقول الصابوني في تفسيره للآية الكريمة:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ .

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها.

قال ابن عباس: كطي الصحيفة على ما فيها فاللام بمعنى على ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نحشرهم حفاة عراة غرلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها. . .

ولا أريد من أطيل في التفسير ولا أن أورد تفسيراً آخر لأن كل التفاسير بعد أن قرأتها تنهج نهجاً واحداً. . وأرى أنها جميعاً بعيدة بعداً كاملاً عن معاني مثل هذه الآيات فالآيات كلها تشير إلى إعادة الخلق كله من جماد وروح وأرض وسماوات إلى ما بدأ اللّه سبحانه به. . فقوله سبحانه:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ تخص السماء وما فيها من مليارات النجوم والكواكب والأرض وما فيها من جبال وبحار، فالآيات تتعلق بالخلق المادي وهي السماوات فإن اللّه سبحانه يعيدها تماماً كأول الخلق إذ لا بد أنه كان بداية لهذا الكون وهذا الخلق وهذه السماوات فهي لم تكن بالحال التي كانت عليها اليوم ودليل ذلك أن اللّه سبحانه يوسع هذا الكون باستمرار.

يقول تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٤٧]

إذاً لم تكن السماء اليوم على الحالة التي كانت عليها أمس لأنها في كل يوم تتوسع فإذا عدنا إلى الوراء فإنها تتناقص باستمرار حتى نأتي إلى البداية التي خلق اللّه سبحانه فيها الكون بعد أن كان عرشه على الماء. . ومعنى ذلك أن اللّه سبحانه يقلص حجم تلك السماوات والمجرات ويعيدها إلى ما كانت عليه وهي نقطة البدء والخلق. . وهذا ما يؤيده علماء الفلك إذ اعتبروا أن بداية هذا الكون بدأ من الانفجار الكبير وهي نقطة الصفر إذ خلق من هذه البيضة الكونية الكبرى على مرور مليارات السنين بعد أن انفجرت انفجاراً هائلاً المجرات والنجوم والكواكب. . فمعنى ذلك أن اللّه سبحانه يعيدها إلى الوراء باستمرار ثم يطويها كما نطوي نحن الصحف والسجل وذلك بعد أن يجعلها بيمينه وهذا هو المقصود واللّه أعلم وهذا أيضاً يؤيد من الآية القرآنية الكريمة.

يقول تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٧]

ولنقرأ في معنى الآية الكريمة من تفسير ابن كثير:

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الجملة حالية والمعنى ما عظموه حق تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة التي هي غاية العظمة والجلال فالأرض على سعتها وبسطتها في قبضة الرحمن يوم القيامة ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ والسماوات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه: قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف اللّه به نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه، وقال ابن كثير: وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية والطريق فيها وفي أمثالها فذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ويقول: جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري **«يقبض اللّه تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»**؟

إذاً أيضاً في هذه الآية الكريمة التي تعطي نفس معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ فإن المفسرين القدامى يتحرجون من تفسيرها ذلك أن هذا علم اللّه المستقبلي الذي لم يعطه أحداً من خلقه ولكن هذا الرأي لا يتنافى مع بيان قدرة اللّه سبحانه في هذا الأمر وخاصة اليوم بما ملكت البشرية من أدوات علمية تساعدها على تفسير تلك الآيات والتي كان يفتقدها المفسرون القدامى.. . فقد علم هذا الجيل عن السماء ما لم يعلمه السابقون حيث إن فيها مليارات ومليارات النجوم وقد يصل أحد النجوم إلى أضعاف مضاعفة من حجم شمسنا التي تبلغ ١,٣٠٠ مرة حجم الأرض.. . وقد توصل هذا الجيل بفضل ما ملكه اللّه من علم وأدوات وسفن فضائية إلى معرفة الكثير من أصل الخلق في السماوات كخلق المجرات والنجوم وقدروا عمر الكون وكيف بدأ.. . وتعددت النظريات التي قدمنا منها الكثير في هذا الجزء حول نهايته كما تعددت النظريات حول بدايته

وكل هذا يساعد في فهم معنى الآيات ولا يساعد في الوصول إلى علم اللّه سبحانه وفهم الآيات لم يمنعنا اللّه سبحانه من فهمها وتفسيرها وهو الذي وعد في كتابه فقال:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ٥٣]

ومعنى الآية الكريمة أن العباد لم يقدروا قدرة اللّه سبحانه وأنه خلق هذه السماوات بما تشاهدونه فيها وأنه هو القادر على إعادتنا رغم عظيم اتساعها وحجمها وبعدها إذ يبعد بعضها عن بعض ما يزيد عن خمسة عشر مليار (١٥) سنة ضوئية والثانية الواحدة الضوئية (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف كم وكذلك أعدادها التي لا يعلمها إلا اللّه سبحانه إذ قدر علماء الفلك أن في مجرة درب التبانة (٤٠٠) مليار نجم و٣٠٠ مليار كوكب وهذه المجرة ليست إلا واحداً من مليارات المجرات التي تسبح في السماء، كل هذا سوف يجعله اللّه سبحانه بيمينه بعد أن يعيدها بقدرته إلى ما كانت عليه عند لحظة الخلق.. فمن غير اللّه سبحانه يفعل هذا والبشرية إذا اجتمعت كلها لا تستطيع إلغاء مجرى نهر أو نبعه كنهر النيل مثلاً على سطح هذه الأرض، وما النيل إلا نهراً واحداً من مئات الأنهار فما بالك إذاً بالبحار والمحيطات.. لذلك ما قدروا اللّه حق قدره وهو القادر على جمع تلك المليارات من النجوم والكواكب يوم القيامة ثم يجعلها جميعاً بيمينه ويقبض الأرض التي نعيش عليها، فسبحانه وتعالى عما يشركون وهكذا ينهي اللّه سبحانه هذا الكون وينهي معه حياة كل الخلق من جماد وإنس وجن وحيوان ثم تقوم الساعة إيذاناً ببداية يوم القيامة والحساب والدخول السرمدي في الجنة والدخول السرمدي لأهل النار في النار وهذا وعد من اللّه سبحانه ولن يخلف اللّه سبحانه وعده.

نهاية الكون مرهون بنهاية حياة الإنسان على الأرض

. . . . قد يستغرب الإنسان كيف يرهن الكبير بالصغير؟ وإذا ما انتهت حياة الإنسان على الأرض انتهى معها هذا الكون العظيم بمليارات مجراته ومليارات المليارات من النجوم والكواكب والأقمار والشهب والنيازك وما نعلم وما لم نعلم، وما الأرض التي نعيش عليها إلا حبة رمل واحدة على شاطئ رملي يمتد مئات الكيلومترات. . وليس هذا فحسب بل الملائكة التي لا يعلم عددها إلا اللّه سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ المدثر الآية ٣١ يتغير حالها وتجتمع في أرجاء السماوات استعداداً لنزولها إلى أرض المعاد التي أعدَّها اللّه سبحانه لتجتمع عليها جميع الخلائق يوم القيامة ملائكة وجناً وإنساً ووحشاً لقوله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

[سورة الحاقة، الآيات: ١٣ ـ ١٧]

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

[سورة النبأ، الآية: ٣٨]

وقد بين اللّه سبحانه بآية كريمة أن نفخة الصعق وقيام الساعة والبعث والنشور تشمل السموات والأرض ومن يعيش فيهما جميعاً يقول تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

.. إذاً ليس الأمر متوقفاً عند أحد من خلق اللّه سبحانه سواء في الأرض أو في السماوات بل تشمل جميع خلقه.. ومن يعلم عدد خلقه سبحانه إلا هو مالك الملك العليم الخبير.

يقول تعالى:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾.

[سورة مريم، الآيتان: ٩٣ ـ ٩٤]

... وللسائل أن يسأل كيف يكون هذا ولا يشكل الإنسان بمئات أجياله أو قل آلاف أجياله أمام عدد خلق اللّه الذين وعد بحشرهم يوم القيامة شيئاً؟ وهو المخلوق الذي خلق في آخر الدنيا وآخر الخلق ولن يخلق على الأرض بعده شيئاً واللّه أعلم لأن كل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تشير إلى أن الإنسان آخر الخلق وعليه تقوم الساعة.

.. إن عمر الكون ١٣,٥ مليار سنة وهذا ما أكده علماء الفلك في آخر نظرياتهم وعمر الأرض ٤,٥ مليار سنة وقد خلق اللّه سبحانه على هذه الأرض عبر تاريخها الطويل خلقاً كثيراً من أنواع شتى من الحيوان وغيره وكذلك خلق في السماوات الملائكة وربما الجن وخلقاً لا نعلم عنه شيئاً وذلك في تاريخها الطويل الذي امتدَّ إلى ١٣,٥ مليار سنة.. ومع ذلك لم نجد آية واحدة تشير إلى أن اللّه سبحانه سخر هذه السماوات والأرض لخلق غير الإنسان هذا المخلوق الذي خلق في اللحظات الأخيرة من عمر الكون ولم يتجاوز وجوده على الأرض من أصل ٤,٥ مليار سنة أكثر من بضع عشرات الآلاف من السنين وفي أكثر التوقعات بضع مئات الآلاف من السنين وهذا العمر لا يساوي شيئاً أمام حياة حيوان واحد خلقه اللّه سبحانه على الأرض وهو الديناصور الذي عاش كما قال علماء البيئة والجيولوجيا (١٦٥) مليون سنة وانقرض منذ ٦٥ مليون سنة، وهكذا فإن اللّه سبحانه يفعل ما يريد ويختار من يريد ويكرم من يريد ويجتبي من يريد مالك الملك لا يسأل عما يفعل وهم يسألون يقول تعالى:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٢٣]

ويقول تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٢٦]

المهم أن اللّٰه سبحانه سخر لنا السموات والأرض وما فيها ورهن قيام الساعة وانفجار السموات والأرض وطيهما وقبضهما بنهاية حياة الإنسان على الأرض.

يقول تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

[سورة لقمان، الآية: ٢٠]

وأما لماذا سخرت السموات والأرض للإنسان فنقول:

... **وأول الأمر** يفيدنا أن الإنسان أعظم من السماوات والأرض عند اللّٰه سبحانه وتعالى ذلك أن اللّٰه سبحانه وتعالى سيطوي السماوات والأرض يوم القيامة ولا يطوي الإنسان.

يقول تعالى:

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

ويقول تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٧]

ويقول تعالى:

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٤٨]

وثاني الأمر: أن الإنسان استطاع أن يحتوي الكون بعقله وعرف من خلال عقله ماذا في الكون ونجح في التفكير في السماوات والأرض وعلم قدرة اللّه سبحانه وتعالى فيها واكتشف علمياً ماذا في السماوات من كواكب ونجوم ومجرَّات وحدد أعدادها ومواقعها وسمَّاها بأسمائها وعرف كيف خُلق الكون وكم عمره ودرس الأرض وغلافها الجوي وباطنها وما تحويه من ثروات واستغلها وكل ذلك من خلال عقله الذي ميزه اللّه سبحانه وتعالى به عن باقي المخلوقات حتى عن الملائكة والملائكة المقربين وذلك واضح وجلي من بيان اللّه سبحانه وتعالى في آياته عندما تحدَّث عن خلق آدم أول البشر وهو رمز لخلقه من البشر أجمعين.

يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣]

... ومن الآيات الكريمة يتبين لنا أن اللّه سبحانه وتعالى ميز آدم عليه السلام من الملائكة بأن علمه علم الأشياء وأسمائها ذلك من خلال عقله القادر على الفهم والاستيعاب وهذا العلم حجبه عن الملائكة ودليله قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٣٢]

وثالث الأمر: أن اللّه سبحانه وتعالى اعتبر العقل من أحب المخلوقات إليه ذلك لقدرته على فهم معنى العبادة والطاعة وشهادة أن لا إلٰه إلا اللّه وقدرته على استيعاب التعامل مع الموجودات واستثمارها واستغلالها وأن يكون خليفة في الأرض التي باركها اللّه سبحانه وتعالى دون سائر الكواكب.

وثاني الأمر: أن الإنسان استطاع أن يحتوي الكون بعقله وعرف من خلال عقله ماذا في الكون ونجح في التفكير في السماوات والأرض وعلم قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى فيها واكتشف علمياً ماذا في السماوات من كواكب ونجوم ومجرَّات وحدد أعدادها ومواقعها وسمَّاها بأسمائها وعرف كيف خُلق الكون وكم عمره ودرس الأرض وغلافها الجوي وباطنها وما تحويه من ثروات واستغلها وكل ذلك من خلال عقله الذي ميزه اللّٰه سبحانه وتعالى به عن باقي المخلوقات حتى عن الملائكة والملائكة المقربين وذلك واضح وجلي من بيان اللّٰه سبحانه وتعالى في آياته عندما تحدَّث عن خلق آدم أول البشر وهو رمز لخلقه من البشر أجمعين.

يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣]

... ومن الآيات الكريمة يتبين لنا أن اللّٰه سبحانه وتعالى ميز آدم عليه السلام من الملائكة بأن علمه علم الأشياء وأسمائها ذلك من خلال عقله القادر على الفهم والاستيعاب وهذا العلم حجبه عن الملائكة ودليله قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٣٢]

وثالث الأمر: أن اللّٰه سبحانه وتعالى اعتبر العقل من أحب المخلوقات إليه ذلك لقدرته على فهم معنى العبادة والطاعة وشهادة أن لا إلٰه إلا اللّٰه وقدرته على استيعاب التعامل مع الموجودات واستثمارها واستغلالها وأن يكون خليفة في الأرض التي باركها اللّٰه سبحانه وتعالى دون سائر الكواكب.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾.

[سورة فصلت، الآيتان: ٩ ـ ١٠]

... ومن الآيات ندرك أن اللَّه سبحانه وتعالى بارك في هذه الأرض من أجل الإنسان الذي خلقه وخلق عقله وكان من أحب المخلوقات إليه.

يقول تعالى في الحديث القدسي:

(لما خلق اللَّه العقل، قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، قال ما خلقت خلقاً أحب إليَّ منك، بك آخذ وبك أعطي)(١).

ورابع الأمر: أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق السماوات على عظيم ما فيها والأرض وما فيها والجبال الرَّاسيات وضخامتها والمجرَّات ومليارات نجومها وكواكبها لكن كل هذا على عظيم خلقه أبت أن تحمل الأمانة التي عرضها اللَّه سبحانه وتعالى عليها أي على السماوات والأرض فَعرض الأمانة على الإنسان فحملها ورضي بهذا التكليف الإلٰهي العظيم.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٧٢]

وخامس الأمر: أن اللَّه سبحانه وتعالى أكرمنا وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٧٠]

---

(١) رواه عبد اللَّه بن أحمد عن الحسن مرسلاً والطبراني عن أسامة وأبي هريرة رضي اللَّه عنهما.

وسادس الأمر: أن اللّه سبحانه وتعالى لما خلق الكون (السماوات والأرض) وجعل فيها مليارات الكواكب والنجوم والمجرَّات قال عنها:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾.

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

ولا نريد أن ندخل المدخل العلمي الآن في تفسير هذه الآيات فإن لهذه الآيات وتفسيرها العلمي موقعاً آخر في هذه الموسوعة... ولكن ما وددت قوله على الأقل في الأمر أن كواكب المجموعة الشمسية جميعاً ثبت وما من شك أنها خالية من أي نوع من الحياة فسخر سبحانه وتعالى الجامد للعاقل ولم يسخر العاقل للجامد وهذا هو إكرام الإنسان فما وصل إليه علم الإنسان اليوم وما استطاع علماء الفلك أن يصلوا إليه اليوم هو كواكب المجموعة الشمسية والتي أكدوا على خلوها من الحياة وأما إذا خرجنا خارج حدود المجموعة الشمسية إلى أقرب نجم إلينا وهو ما سماه العلماء (قنطاريوس) فإننا بحاجة إلى سفينة فضائية حديثة جداً للذهاب إليه وقدر العلماء الوصول إليه بنحو من مليون سنة وعمر الإنسان على الأرض ما بين الستين والسبعين سنة.. إذاً ماذا في الكون الخارجي وهل يوجد حياة في المجرات التي تبعد عنا مليارات السنين الضوئية فهذا من المستحيل علمه ومعرفته وعلماء الفلك يبحثون بكل الوسائل المتاحة لمعرفة هل هناك حياة أخرى في الكون الفسيح.

على كل لهذه الساعة الإنسان سيد الكون المنظور حمل الأمانة وكرَّمه اللّه سبحانه وتعالى وهو الكائن العاقل الذي عرف اللّه سبحانه وتعالى قدره فسخَّر له السماوات والأرض من مميزاته التي ذكرت ولم يسخر له هذا بالعشوائية إنما من علم اللّه سبحانه وتعالى.. فكيف يستطيع محمد ﷺ أن يقرر ويسخر السماوات والأرض للإنسان وهو لا يعلم ولا كل الخلق في ذلك الزمان عن السماء والسماوات أي شيء سوى أنها نجوم تلمح في كبد السماء.. فهذا التسخير من خالق الكون والعالم بما فيه.

ممَّا تقدم فهمنا لماذا سخر اللّه سبحانه السموات والأرض للإنسان ولماذا رهن طيها ونهايتها وتكويرها وقبضها بنهاية حياة الإنسان على الأرض.

.. علماء الفلك في مؤتمر (بروكسل) بلجيكا عام ١٩٩٠م يؤكدون أن الإنسان في هذا الكون آخر المخلوقات خلقاً(١)

.. في مؤتمر علمي عقد في بروكسل ببلجيكا عام ١٩٩٠م لدراسة الكون ضم المئات من علماء الفلك في شتى أنحاء العالم.... قدم كل واحد منهم دراسته العلمية عن نشأة الكون وخلق النجوم والكواكب والأقمار وأعمارها... وخلصوا إلى نتيجة علمية فلكية، مفادها العلمي صعب الفهم على عموم الناس لكثرة الأرقام والأعداد وجداول الحساب والتي يبلغ طول الكثير منها أمتاراً لكثرة الأعداد والأصفار.. فعمدوا على تشفير هذه الأرقام كالتعبير عن رقم مليار١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ مثلاً بـ(O) والمائة مليار (OX) ومع ذلك وجدوا أن هذا يطول بهم لكثرة الأرقام المذهلة والرموز فاتفقوا أخيراً على تشبيه عمر هذا الكون بـ (يوم واحد) ٢٤ساعة.

وقالوا: في الساعة الأولى من عمر هذا الكون خلق اللّه سبحانه المجرات والنجوم والتي تعد بآلاف المليارات، وفي الساعة الثانية فصل اللّه سبحانه بين هذه المجرات، وفي الساعة الثالثة خلق الكواكب والأقمار والنيازك، وفي الساعة الرابعة ثبت اللّه هذه النجوم والمجرات في مواقعها، وفي الساعة الخامسة خلق اللّه سبحانه الكثير من الكواكب والأقمار بعد أن فصلها عن النجوم، وفي الساعة السادسة جعل اللّه كل هذا طباقاً وأبراجاً وسماوات... وهكذا حتى قالوا: إن اللّه سبحانه خلق الأرض في الساعة الأخيرة من هذا اليوم من عمر الكون أي في أول الساعة الرابعة والعشرين.

---

(١) مجلة البحث العلمي ـ أكاديمية البحث العلمي القاهرة، والمؤتمر معروف وقد تم إبراز نتائجه العلمية في كثير من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

. . . وقالوا: إنه في الأجزاء الأولى من الساعة الأخيرة خلقت التربة ومن ثَمَّ ثبتت الجبال ومن ثم البحار والأنهار وبعدها خلقت النباتات والأشجار وبعدها خلق اللّه ما في البحار من خلائق ثم خلق اللّه الحيوانات بعشرات الآلاف من الأنواع والحشرات بملايين الأعداد والأشكال وفي الأجزاء المتتابعة من الساعة أوجد اللّه وقدر أقوات العباد. والمهم من قولهم ونظرياتهم. . . . أنهم قدروا أن الإنسان خلق ووجد في الدقائق العشر الأخيرة من هذه الساعة، أو من هذا اليوم كله الذي اختصروا فيه عمر الكون كما قلت من قبل، والأهم من ذلك قولهم: إنه قد مضى على وجود الإنسان في هذه الأرض سبع دقائق من الدقائق العشر الكلية والتي هي عمر الإنسان على الأرض، ولم يبق إلا ثلاث دقائق وقالوا: نحن نعيش الآن في آخر هذه الدقائق الأخيرة.

. . . . في البداية قلت: إن العلماء صغَّروا عمر هذا الكون واختصروا مليارات السنين[(١)] وجعلوها يوماً واحداً للتقريب على فهم الإنسان ومعنى هذا أن الساعة الواحدة من عمر هذا اليوم تساوي ملايين السنين والدقيقة الواحدة آلاف السنين لأن العلماء يريدون أن يعرفوا متى نشأ هذا الكون ومتى ينتهي، فهم مدركون حقيقة لا جدال فيها مطلقاً أن هذا الكون صائر إلى خراب، وواقع فيه الدمار لا محالة، فكل شيء عند علماء الفلك له عمر ينتهي معه، والكون عندهم له عمر سينتهي إليه.

واختلف كثير من العلماء متى هذه النهاية، كما اختلفوا تحديداً متى نشأ هذا الكون.

. . . . إذاً نحن كما يقول علماء الفلك في الدقائق الأخيرة من عمر هذا الكون. . . . وما قالوه وأقروه واتفقوا عليه لا يتنافى مع ما جاء به القرآن العظيم وأحاديث رسول اللّه ﷺ ولا يتنافى ذلك مع العقل والمنطق والفهم والتقدير وليس هو بالشاذ من منطق الإنسانية ومفهومها وتقديرها وأديانها وعقائدها.

---

(١) عمر الكون ١٣ ألف مليار سنة حسب ما أوردته مجلة لايف الأمريكية.

الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تؤكد أن الساعة قريب وأن الإنسان خلق في المرحلة الأخيرة من عمر الكون

الآيات الكريمة في القرآن العظيم تؤيد ما قاله علماء الفلك وتؤكد أن الساعة قريب، ولو لم تكن الساعة وقيامها قريباً ما ذكر اللّه سبحانه في كتابه الكريم شيئاً عن ذلك، فلو أن الساعة بعلم اللّه تبعد عنا عشرات الآلاف من السنين لما ذكر اللّه سبحانه كلمة قريب في آياته الكريمة عند ذكره للساعة في أسلوب بلاغي رائع يعلمك بأن الساعة قريب دون التصريح.

وإليك البيان بقربها، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾.

[سورة الشورى، الآية: ١٧]

ويقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾.

[سورة المعارج، الآيات: ٥ ـ ٧]

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٦٣]

ويقول تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾.

[سورة القمر، الآية: ١]

وبما أن الساعة قريب كما يقول اللّه تعالى فهذا يعني أننا لم نخلق في المراحل الأولى لعمر الكون الذي يتجاوز عمره كما يؤكد كل علماء الفلك مليارات السنين.

وكذلك فإن رسول اللّه ﷺ يؤكد في حديثه الشريف الذي رواه الترمذي: أن الإنسان خلق في الأيام الأخيرة من عمر الكون، ويقول رسول

اللّٰه ﷺ مؤكداً أن آدم عليه السلام قد خلقه اللّٰه في آخر يوم من الأيام الستة التي خلق اللّٰه سبحانه فيها السموات والأرض، ومن بعد العصر أيضاً تأكيداً على ما قاله علماء الفلك بما ملكوا من أدوات تكنولوجية عظيمة أن الإنسان خلق في اللحظات الأخيرة من عمر الكون.

. . . . . . كما جاء في حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ «**خلق اللّٰه التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وفي آخر ساعة من ساعات الجمعة فيها بين العصر إلى الليل**»(١).

ومما يؤكد هذا أن رسول اللّٰه ﷺ أيضاً شبه عمر الإنسان على الأرض بيوم واحد تماماً كما فعل علماء الفلك في مؤتمرهم في بروكسل بلجيكا، ولكن علماء الفلك شبهوا ومثلوا عمر الكون كله بيوم. . . بينما رسول اللّٰه ﷺ مثل لعمر الإنسان على الأرض منذ آدم إلى آخر رجل يخلق على هذه الأرض بيوم واحد (٢٤ ساعة)، ويقول الرسول ﷺ أنه قد مضى على وجود الإنسان على الأرض إلى تاريخ بعثته ونزول القرآن الكريم (٢١) ساعة ولم يبق إلا (٣) ثلاث ساعات وهي الفترة ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس كما في الحديث الشريف.

عن ابن عمر رضي اللّٰه عنهما أن رسول اللّٰه ﷺ قال:

«**إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس**»(٢).

وفي تتمة الحديث الشريف أن اللّٰه سبحانه جعل لهذه الأمة رغم قصر عمرها على هذه الأرض (ثلاث ساعات) فقط من يوم كامل أجراً عظيماً ومضاعفاً عن أجر باقي الخلق من اليهود والنصارى وغيرهم.

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي وذكره البخاري في تاريخه والبيهقي في الأسماء والصفات.
(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح برقم ٢٨٨٣.

يقول رسول اللَّه ﷺ في تتمة الحديث الشريف وأورده كاملاً عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود على قيراط قيراط فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى على قيراط قيراط ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال: فإنه فضلي أوتيه من أشاء».

رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح ٢٨٨٣

ومن الحديث الشريف نفهم أنه فيما إذا انقضت الساعات الثلاث الأخيرة من عمر الإنسان على الأرض قامت الساعة، والسؤال يبقى إذا كان عمر أمة محمد ﷺ (٣)ساعات من عمر اليوم من عمر الإنسان كله، وقد مضى على بعثة رسول اللَّه ﷺ ما يزيد على ١٤٠٠ سنة، فكم بقي من هذه الساعات الثلاث التي مضى معظمها أو قل أكثرها؟؟ وكذلك فإن رسول اللَّه ﷺ أوضح لنا في حديث آخر عن الزمن القليل الباقي من عمر البشرية على الأرض.

... عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ

«ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها».

رواه الحارث بن أبي أسامة.

وقال رسول اللَّه ﷺ عن أبي الكنود عن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قالا: قال رسول اللَّه ﷺ:

«مثل الدنيا كمثل ثغب قلنا: وما الثغب، قال: الغدير ذهب صفوه وبقي كدره فالموت تحفة كل مسلم»[١].

---

(١) رواه البخاري.

ومعنى الحديثين الشريفين أن الدنيا ذهب أكثرها وبقي القليل منها، وهذا كله يدلنا بوضوح أن قيام الساعة قريب، كما قال تعالى في بعض الآيات الكريمة والتي قدَّمت بعضها والتي تشير إلى هذا القرب كقوله تعالى:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٦٣]

فاللَّه سبحانه بين أنها قريب مع إخفائه تاريخ قرنها وسنتها وشهرها ويومها وساعتها، وذلك لتعلم البشرية أن الساعة ليست بعيدة ولنفي أي قول أيضاً أو تقدير أن قيام الساعة بعد آلاف كثيرة من السنين.

وأما الحديث الشريف الثاني الذي تقدم والذي يقول فيه رسول اللَّه ﷺ:

«**خلق اللَّه التربة يوم السبت**» إلى قوله: «**وخلق آدم في آخر يوم بعد العصر إلى الليل**» أي إلى المغرب.

تؤكد هذه الأحاديث الشريفة الأربعة بعضها مع بعض في معناها وكل واحد منها يؤكد الثاني لأنها جميعاً تصب في معنى واحد، وهو أن الساعة قريب، وأنه لم يبق من الدنيا إلا القليل وأننا نحن أبناءَ هذا الجيل من البشر وبعد مضي أكثر من ١٤٠٠ سنة على بعثة الرسول ﷺ لم يبق إلا أقل القليل وكل هذا يؤكد حقيقة ما قاله علماء الفلك المجتمعون في بلجيكا عام ١٩٩٠م أن الإنسان خلق في الدقائق العشر الأخيرة من عمر الكون وأننا الآن في الدقائق الثلاث الأخيرة من الدقائق العشر الأخيرة.

وهذا كله أيضاً يؤكد أن قيام الساعة أصبح وشيكاً وربما أقرب مما نتصور أو نتوقع أو حتى نتخيل، دليلُ القرب الذي ما عليه أدنى شك أو غبار حديثُ رسول اللَّه ﷺ.

عن سهل بن سعد رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها**»[١].

ومعنى الحديث أن بين بعثة رسول اللَّه ﷺ وقيام الساعة زمناً قليلاً جداً

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وقريباً كقرب أصبعيه من بعضهما السبابة والوسطى زيادة في تأكيد قربها قياساً لعمر الكون وقياساً لعمر الإنسان على الأرض.

وإذا نفينا بُعد الساعة بعشرات الآلاف من السنين من خلال الآيات الكريمة والأحاديث، لكن هذا لا يعني أن الساعة في المائة سنة القادمة أو المئتين أو الثلاثمائة أو الخمسمائة فهذا يبقى بعلم اللّه، ولا يمكن لبشر مهما أوتي من علم أن يحدد هذا بتاريخ أبداً.

الخاتمة

الحمد للّه على نعمه وأفضاله الذي أيدنا بعون منه فأتممنا هذا الجزء والذي يتحدث عن الموت ونهاية الكون، حيث بيَّنا فيه أن الموت مصير كل حي والفناء مصير كل جماد.. وكما بدأنا في الأجزاء الأولى من الموسوعة عن بداية نشأة الكون ونشأة الحياة فيه جعلنا الجزأين الأخيرين من الموسوعة عن الموت ونهاية الكون وقيام الساعة والبعث والنشور وتبديل السموات والأرض. وهذا طبيعي حيث جعل اللّه سبحانه لكل شيء خلقه نهاية من أصغر المخلوقات كالذرة إلى أكبر المخلوقات كالنجوم العملاقة وقد أكد العلم اليوم فناء وموت النجوم العملاقة، وأيضاً نشاهد على هذه الأرض موت كل شيء من إنسان وحيوان وطير وحشرات وكذلك فناء الجمادات وإن طال عمرها آلاف السنين.. وقد أكد اللّه سبحانه أن الموت يشمل كل نفس حية يقول تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٥]

وكذلك يؤكد اللّه سبحانه أن الموت يذوقه ويهلك من دونه كل خلق اللّه من روح وجماد ولا يبقى إلا وجه اللّه تعالى.

يقول تعالى:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ ﴾.

[سورة القصص، الآية: ٨٨]

ويقول تعالى:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

[سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧]

وأما بالنسبة للإنسان فلا يعتبر الموت فناء بل هو مرحلة زمنية أرادها

الله سبحانه بعلمه ليكون بعدها وعندما يشاء الله سبحانه قيام الساعة والبعث والنشور ثم اجتماع الخلق على أرض أعدها الله سبحانه ليجمع عليها خلقه ليحاسبهم على أعمالهم ثم يكون المصير. . مصير الكافرين والمشركين إلى النار التي أعدها الله سبحانه لهم، ومصير المؤمنين الصالحين إلى الجنة التي أعدها الله سبحانه لهم. . فالإنسان إذاً لا يفنى إنما يهلك ويموت مؤقتاً إلى حين اليوم الموعود. . فإذا ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز أن كل شيء هالك إلا وجهه كذلك أكد سبحانه أنه سيطوي السموات والأرض وأن الأرض جميعاً ستكون في قبضته والسماوات مطويات بيمينه.

يقول تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٧]

وحتى يطمئن المؤمنون أن وعد الله سبحانه حق في قيام الساعة وبعث الخلائق جميعاً فقد أقسم الله سبحانه على هذه العودة مفنداً زعم الكافرين أنه لا عودة بعد الحياة وإنما هي حياتهم الدنيا يعيشون ويموتون ولا نشور لهم ولا حساب ولا جنة ولا نار.

يقول تعالى:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

[سورة التغابن، الآية: ٧]

فالحمد لله سبحانه أن جعل لهذا الكون بداية، وجعل له نهاية، والحمد لله سبحانه أنه لم يخلقنا لهذه الدنيا وحسب، أو لم يخلقنا فيها لنعيش فيها إلى الأبد، بل خلقنا في هذه الدنيا للابتلاء والامتحان كما قال سبحانه:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٢]

ولقد وعد الله سبحانه المؤمنين بعد هذا الابتلاء والامتحان جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وفي هذا الأمر عشرات الآيات القرآنية.

يقول تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ٧٢]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

د. ماهر أحمد الصوفي

موبايل ٧٥٢٦٦٩١/ ٥٠/ ٠٠٩٧١

أبو ظبي ص.ب ٢٩٢٢

الموسوعة الكونية الكبرى

آيات الله

في قيام الساعة وبعث الخلائق وتبديل السماوات والأرض

الجزء العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

وقال اللَّه تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

[سورة الحج، الآيتان: ١، ٢]

وقال اللَّه تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٥١، ٥٢]

وقال اللَّه تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٤٨]

حديث شريف

ـ عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول:

«يوم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل اللّه ـ أو قال مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» رواه مسلم رقم الحديث (٢٩٤٠).

ـ عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«ما بين النفختين أربعون» قالوا لأبي هريرة ـ أربعون يوماً؟ قال: أبيت، (أي لا أجزم بأنها أربعون يوماً) قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، «ثم ينزل اللّه من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل». قال ﷺ: «وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة» حديث متفق عليه.

ـ عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ...﴾ فأين يكون الناس يا رسول اللّه؟ فقال: «على الصراط» صحيح مسلم. باب البعث والنشور (٤/ ٢١٥٠) رقم الحديث (٢٧٩١).

ـ عن ثوبان رضي اللّه عنه أن حِبراً من أحبار اليهود سأل رسول اللّه ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» والمراد بالجسر الصراط. صحيح مسلم (١/ ٢٥٢) ورقم الحديث (٣١٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد للّه الذي تتم بنعمته الصالحات وأشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللّهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . .

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

[سورة القصص، الآية: ٧٠]

. . . في غمرة سعادتي بفضل اللّه سبحانه وأنا أكتب مقدمة الجزء العشرين لا يسعني إلا أن أتوجه إلى اللّه سبحانه وأحمده وأشكره على ما أعانني وأيدني وهداني وألهمني في كتابة هذه الموسوعة (**الموسوعة الكونية الكبرى**) والمؤلفة من عشرين جزءاً شملت الحديث عن الكون من الذرة إلى المجرة ومن خلق الكون ونشأة الحياة إلى عنوان هذا الجزء (**آيات اللّه في قيام الساعة وبعث الخلائق وتبديل السماوات والأرض**) وأي كاتب على ظهر هذه الأرض إن لم يشأ اللّه ولم يعن مؤلفه فلن يستطيع أن يكتب ولا صفحة واحدة فما بالك بمن أعانه اللّه سبحانه في كتابة ما يزيد عن خمسة آلاف صفحة تتحدث جميعاً في آيات اللّه سبحانه ومعجزاته وقدرته وعلمه. . . . فكم أنا بحاجة إلى شكر اللّه وحمد اللّه على نعمه وأفضاله. . . . إن كثيراً من الكتاب إذا ما ألفوا كتاباً واحداً شكروا اللّه سبحانه وحمدوه على ما أعانهم وأيدهم.٧, فكيف بي وقد أعانني اللّه على إتمام هذه الأجزاء العشرين وما تحمله من علم علمني اللّه سبحانه إياه وأيدني في البحث عنه وأعطاني من علمه اللدني ووفقني إلى ما يحب ويرضى وأمد بعمري حتى أنهي هذه الموسوعة وشملتني رحمته التي يرحم بها عباده فسبحانه بيده الخير كله كما يقول سبحانه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٢٦]

فلا أنا ولا غيري يزكو إذا لم يزكه اللَّه يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

[سورة النور، الآية: ٢١]

.. ولولا فضل اللَّه ورحمته عليّ فواللَّه ما أنجزت جزءاً واحداً من هذه الموسوعة... وأذكر في هذا المقام حديثاً جرى يوماً بيني وبين الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الداعية الإسلامي الكبير عندما أنهيت العمل في (**موسوعة الآخرة**) من عشرة أجزاء ويومها كان لي شرف تقديم الدكتور سعيد رمضان البوطي لهذه الموسوعة... قال لي: أحمد اللَّه سبحانه أن خصك في كتابة هذه الموسوعة (**موسوعة الآخرة**) ولوشاء اللَّه غير ذلك لمررها لغيرك وألهم غيرك كتابتها، وقال لي أيضاً: أحمد اللَّه سبحانه أن ألهمك هذه الفكرة فكرة كتابة موسوعة الآخرة فهي عمل جديد غير مسبوق ولم تخطر على بال أحد من قبل ولو خطرت الفكرة فربما سبقك إليها آخرون ولكن الإرادة الربانية جاءت في إلهامك ولكل مجتهد نصيب. إذاً فضل اللَّه سبحانه عليَّ عظيم ورحمته عظيمة ولو بت بقية عمري شاكراً لأنعامه لما كفاني ذلك وما ينطبق على موسوعة الآخرة ينطبق أيضاً على هذه الموسوعة (**الموسوعة الكونية الكبرى**) فإن الكثيرين كتبوا في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ومنهم من ألف كتاباً واحداً ومنهم من ألف كتابين ومنهم من جعل الحديث عن الإعجاز في خمسة أجزاء ولكن بفضل اللَّه سبحانه وكرمه لم يسبق أن ألف كاتبٌ موسوعة في خصوص خلق الكون ونشأة الحياة والإعجاز الإلٰهي تشمل عشرين جزءاً استعرض فيها أحدث ما اكتشفه العلماء في كون اللَّه سبحانه وبيَّن إعجاز القرآن الكريم في كل هذا... أليست هذه منة عظيمة عليَّ ورحمة كبرى شملتني من أرحم الراحمين وأما الحديث عن هذا الجزء (**آيات اللَّه في قيام الساعة وبعث الخلائق وتبديل السماوات والأرض**) فقد جاء بعد الحديث في الجزء التاسع عشر عن (**آيات اللَّه في الموت ونهاية الكون**)... **ذلك أن اللَّه سبحانه بعد أن يميت جميع خلائقه وينهي هذا الكون كله وتفرط عقد ضبطه وإحكامه التي أوجدها اللَّه سبحانه بعلمه وتنفطر السماوات العظيمة وتتشقق وتتفجر وتصبح جميعاً في يمين**

الرحمن . . . تقوم الساعة هذه الساعة التي وصفها الله سبحانه وصفاً دقيقاً من حيث هولها وعظيم أمرها وشدتها يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ . . .

[سورة الحج، الآية: ١]

وفي قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ .

[سورة القمر، الآية: ٤٦]

فإذا ما قامت الساعة وماتت الخلائق جميعاً إلا من يشاء اللّه وذلك من نفخة الصور الأولى ثم يكون البعث والنشور من نفخة الصور الثانية ما أعظم الخالق إنها نفخة واحدة فتموت الخلائق جميعاً في السماوات كلها وفي الأرض وفي نفخة واحدة تحيا وتبعث الخلائق جميعاً وتقوم من رقادها وهي تنظر ما حولها وما حولها إلا بداية يوم القيامة . .

يقول تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ هي نفخة البعث والنشور والقيام لرب العالمين وهي البداية الأولى ليوم القيامة فهو يوم السرور للمؤمنين في صدق اللّه سبحانه وما وعدهم وهو يوم عسير للكافرين والمشركين والمنافقين، وفي وصف ورد في القرآن الكريم يصور شقاءهم ومن أول لحظة قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ . .

[سورة يس، الآية: ٥٢]

فإذا ما بعث اللّه سبحانه الناس جميعاً دون أن ينسى أحداً منهم فقد عدّهم وأحصاهم خالقهم في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ .

[سورة مريم، الآية: ٩٤]

ثم تنقل الخلائق إلى الأرض التي أعدها اللّه سبحانه وربما تكون ذات الأرض بعد أن يمدها اللّه مداً عظيماً ليجمع الخلائق عليها من ملائكة وإنس

وجن ووحوش وطير ليحاسبهم على أعمالهم وبعد الحساب تتطاير الصحف والميزان ثم العبور على الصراط . . . فإذا كان الناس على الصراط ينفذ اللّه وعده فيبدل السماوات والأرض بغيرها يقول تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

[سورة إبراهيم، الآية: ٤٨]

وعندها تنتهي آثار أي حياة لهذا الكون العظيم الذي نعيش فيه اليوم ليكون كون غيره يعلم اللّه حجمه واتساعه ويعلم اللّه وحده ماذا سيكون فيه لأن هذا الأمر العظيم لم يطلع اللّه عليه أحداً من خلقه لا من ملك مقرب ولا من نبي مرسل ولم يحدثنا رسول اللّه ﷺ عن هذا الأمر سوى أن اللّه سبحانه سيبدل الأرض والسماوات وسئل أين يكون الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط» .

ـ عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: **«سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله عز وجل** ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ ﴾ **فأين يكون الناس يا رسول اللّه؟؟ فقال: «على الصراط» . . »** .

ومع هذا الجزء الأخير من الموسوعة لنرَ عظمة اللّه سبحانه في قيام الساعة والبعث والنشور وتبديل الأرض والسماوات .

الفصل الأول

آيات اللّٰه في قيام الساعة

- قيام الساعة أمر مرتبط بالكون كله .
- كيف تقوم الساعة؟؟
- من هم الذين تقوم عليهم الساعة؟؟
- الأمر بقيام الساعة والنفخ في الصور .
- أحوال الناس عند النفخ في الصور نفخة الصعق .
- ما معنى أن الساعة ثقلت في السموات والأرض لا تأتي إلا بغتة؟
- أحوال الأرض وزينتها والجبال والبحار عند قيام الساعة كما جاء في القرآن الكريم .

قيام الساعة
أمر مرتبط بالكون كله

. . . لا تقوم الساعة على الإنسان وحده في هذه الأرض فحسب، إنما أمرها مرتبط مع هذا الكون كله بجميع مخلوقاته وبكل سماواته السبع. . . فإذا ما أراد اللّه سبحانه بعلمه قيام الساعة، فمعنى هذا موت كل الخلائق، وفي ذات الوقت وبآن واحد من خلال نفخة الصعق التي يطلقها إسرافيل عليه السلام من بوقه، فالأمر عظيم وكبير جداً وأكبر مما تتخيل عقولنا بكثير، فنحن لا نعلم شيئاً عن السموات وساكنيها ولا عن المخلوقات التي تعيش فيها.

قال تعالى:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة يس، الآية: ٣٦]

وهل يوجد خلق آخر في السموات يعيش على أرض مثل أرضنا تقوم الساعة عليهم كما تقوم علينا؟ أم خلق اللّه سبحانه في السموات هم الملائكة فحسب؟ فاللّه سبحانه يقول في كتابه الكريم إنه خلق سبع سموات وخلق من الأرض أي (مثل أرضنا التي نعيش عليها) سبعاً مثل السموات.

يقول تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

[سورة الطلاق، الآية: ١٢]

فاللّه سبحانه وحده يعلم دورة هذا الكون، ويعلم دورة حياة مخلوقاته في هذا الكون العظيم، الذي تتجاوز مجراته وفي السماء الأولى فقط آلاف

المليارات من المجرات، وكل مجرة فيها كما قال علماء الفلك ما يزيد عن مائتي مليار كوكب ونَجم ولا ندري ماذا في السماء الثانية والثالثة إلى السابعة.

يقول تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

ـ فملك اللّٰه سبحانه لا تحده حدود وليس لاتساعه نهاية وما تحويه هذه السموات السبع من المخلوقات هي بعلم اللّٰه، وما فيها من خلقه من الملائكة يعلمه وحده لا يستطيع أحد حتى البحث في هذا الأمر، لأنه سبحانه اختصه لنفسه.

قال تعالى:

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

[سورة المدثر الآية: ٣١]

وكل هؤلاء الإنس والجن والملائكة والخلق الذين لا نعلمهم في قوله:

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ستقوم عليهم الساعة في آن واحد وفي وقت واحد، يصعقون صعقة واحدة لا تفرق بين أحد منهم مهما عظم خلقه كالملائكة عليهم السلام.

... لذلك كان كل الأقوام الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا الأمر العظيم وهذه الساعة التي ستغير حال الكون بأسره، وبمن خلق فيه عبر ملايين السنين، يتحدون أنبياءهم الذين أرسلهم اللّٰه إليهم أن يأتوا بالساعة والعذاب اللذيْن يتحدث عنهما الرسل والأنبياء.

... فهم يتصورون أن الساعة أو العذاب كائن في قريتهم التي يعيشون فيها كقوم عاد وثمود وفرعون وأصحاب الرس وغيرهم.

... فكلما تحدث نبي من أنبياء هذه الأقوام عن أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان وأن هنالك ـ اليوم الآخر ـ وأنه ستقوم الساعة ويجمع اللّٰه الأقوام للحساب... كانوا جميعاً يقولون: فأتنا بما تعدنا! وأين الساعة التي تقول؟

يقول تعالى على ألسنة تلك الأقوام: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا * فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

[سورة الأحقاف، الآية: ٢٢]

ويبين اللّه سبحانه لنا في كتابه استعجال هؤلاء الأقوام قيام الساعة الناتج عن عدم إيمانهم باللّه تعالى وبرسله ولا بقيام الساعة ولا يوم القيامة.

يقول تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

[سورة الشورى، الآيتان: ١٧ ـ ١٨]

ويقول تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٤٧]

فقد وصفهم اللّه بالضلال البعيد أي بالجهل المطلق، وتكذيبهم لقيام الساعة ما هو إلا نتيجة عدم المعرفة والعلم... ولو أن فيهم قليلاً من الفكر والعلم لعلموا أن هذه الحياة الدنيا لا يستقر لها حال، وليست هي إلا داراً مؤقتة خلقها اللّه تعالى دار ابتلاء وامتحان، ولا بد أن يجمع اللّه تلك الخلائق التي تموت تباعاً ليوم الحساب.

... لقد كانوا لا يملكون اليقين لقيام الساعة، ويعيشون بالظن الفاسد بمن فيهم مشركو مكة والجزيرة العربية.

يقول تعالى على ألسنة هؤلاء المكذبين الضالين الظانين باللّه ظنّ السوء: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٣٢]

كيف تقوم الساعة؟؟

قيام الساعة هو الأمر من اللّه سبحانه ببدء يوم القيامة... ولكن قيام الساعة شيء ويوم القيامة شيء آخر.

قيام الساعة هو البداية التي تغير معالم الكون وتنهي الحياة الدنيا بكل أشكالها وصورها.

... إنه أمر عظيم.. إن أمر تفجير السماوات وانشقاقها، وانكدار النجوم العظام والتي تبلغ بالمليارات، وإنهاء ما يسمى بالمجرات والعناقيد المجرية، وزوال نور الأقمار في كل أنحاء السماء وتحويلها إلى ظلام دامس لا أثر فيها للحياة وللزينة.. عندها تنتهي زينة السماء بالكواكب وزينة السماء بالمصابيح، تطفأ الأنوار ويعيش الكون ظلامه السرمدي.. مهمة الكواكب تنتهي ومهمة النجوم تنتهي، مَهمتها كزينة ومهمتها كمصابيح مضيئة.

يقول تعالى:

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

[سورة فصلت، الآية: ١٢]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.

[سورة الصافات، الآية: ٦]

وكما تنتهي مهمة السماء ببروجها ومجراتها وكواكبها وساكنيها في لحظة قيام الساعة، كذلك تنتهي مهمة الخلائق جميعاً على الأرض من إنس وجن وحيوان، ففترة الامتحان والابتلاء والخلافة قد انتهت، وجاء دور آخر وحياة أخرى وبعث آخر، بعد أن أمهل اللّه سبحانه خلقه إلى يوم الوقت المعلوم بعد خلافة في الأرض طويلة، كان اللّه ينظر فيها إلى أعمالهم وأقوالهم وقلوبهم.

يقول تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

[سورة يونس، الآية: ١٤]

لقد جاءت الساعة وجاء الوعد الحق الذى أقسم اللّه سبحانه عليه في أكثر من آية قرآنية كريمة.

قال تعالى:

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٢٣]

من هم الذين تقوم عليهم الساعة؟؟

تقوم الساعة على أولئك الخلق الذين وصفهم رسول اللّه ﷺ أنهم أشر الخلق على وجه الأرض، وقد تقدَّم معنا في الأحاديث الشريفة أن اللّه سبحانه يخرج من قعر عدن ناراً تحشر الناس إلى أرض المحشر (بلاد الشام)، وكذلك تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأظن كذلك أنها تحشر كل الخلق الموجودين على قَيد الحياة في كامل أنحاء الأرض، دون اطلاع ومعرفة حقيقة البشر الذين هم على قيد الحياة في لحظة قيام الساعة وهل هم في كامل الأرض كما هي الحال اليوم، أم في جزء منها لأن الأحاديث الشريفة لم تشر إلى هذا الأمر ولكنها أشارت إلى أن ناراً ستخرج من اليمن (عدن) فمن قوتها وشدة لهيبها تجبر الناس على الهرب باتجاه بلاد الشام لأن مسير النار إلى بلاد الشام ثم تتوسع النار فتحشر الناس من مشرق الأرض إلى مغربها أي إلى بلاد الشام فأرض الشام المباركة، والتي بارك فيها رسول اللّه ﷺ هي أرض المحشر والمنشر التي أرادها اللّه سبحانه في علمه.

يجمع اللّه سبحانه كل الخلق الذين ستقوم عليهم الساعة جزاء وِفاقاً لكفرهم وشركهم وعبادتهم للأوثان. . . ولقد تقدم الحديث الشريف الذي يبين فيه ﷺ طريقة حشر ما بقي من البشر بعد أن قبض اللّه أرواح المؤمنين وأرواح من كان في قلبه ذرة من الإيمان.

. . . فإذا ما اكتمل الحشر لا ندري كم يمكث الناس في أرض المحشر والمنشر في بلاد الشام حتى تقوم عليهم الساعة. . . ولكن من الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث رسول اللّه ﷺ نتبين أن هناك معيشة لهؤلاء القوم المشركين بعد أن تحشرهم النار وتجمعهم، ولكن وقت هذه المعيشة وزمنها غير معروف، لأن هذا من علم الغيب الذي لم يتحدث به اللّه تعالى ورسوله

الكريم، فلا يستطيع أحد من البشر مهما أوتي من العلم أن يتدخل في مثل هذه الأمور أو يبدي فيها رأياً أو يحدد لها وقتاً.

ومما يدلُّ على معيشتهم لمدة بعد حشرهم ما قاله تعالى في سورة يس يقول تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

[سورة يس، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠]

ومعنى الآيات الكريمة:

يقول الكفار للمؤمنين استهزاءً وتهكماً: متى يقع هذا الأمر الموعود به وهو الساعة والبعث من القبور إن كنتم صادقين في دعواكم ـ فيأتي الجواب من اللَّه سبحانه ما ينتظرون إلا صيحة واحدة (صوتاً شديد الإرهاب مهلكاً) وهي نفخة إسرافيل الأولى في الصور، والتي يموت منها الخلائق جميعاً، وتقضي عليهم بسرعة وهم يختصمون في البيع والشراء وأمور الدنيا، فلا يستطيع بعضهم الإيصاء لبعض فيما له وما عليه ولا يعودون إلى أهليهم ومنازلهم من مشاغلهم لموتهم فيها.

ويقول رسول اللَّه ﷺ في هذا الخصوص وعن سرعة موت العباد وهلاكهم حينما تقوم الساعة:

ـ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقى منه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»(١).

(١) رواه البخاري كتاب الفتن انظر فتح الباري (١٣/ ٨٢).

الأمر بقيام الساعة والنفخ في الصور

إذا جاء الأمر بقيام الساعة فمعنى ذلك أن اللّه سبحانه وفى وحقق كل ما كان وعد به وصدّق رسوله بكل ما أخبر عنه قبل قيام الساعة، فإذا تحقق الوعد من اللّه ورسوله ﷺ أمر اللّه سبحانه إسرافيل بالنفخ في الصور إيذاناً بقيام الساعة، وهي اللحظة الحاسمة ويا لها من لحظة! لحظة البداية التي تشيب لها الولدان وتضع الحامل حملها وترمي المرضع وليدها وترى الناس يتخبطون تخبط السكارى الذين فقدوا وعيهم واتزانهم وحتى عقولهم.

يقول تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

هذه هي البداية فما هو الصور؟ ومن الذي ينفخ في الصور؟

الصور: في لغة العرب القَرن وفسره بعضهم (بالبوق)، وقد سئل رسول اللّه ﷺ عن الصور ففسرَه لهم بما تعرفه العرب من كلامها.

ـ عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ فقال: ما الصور؟ **قال «الصور قرن ينفخ فيه»**(١).

. . . وقد جاءت بعض التفسيرات حول معنى (الصور) لا أرى داعياً لذكرها ومنها على سبيل الذكر أن المقصود بالنفخ في الصُور أي النفخ في الأبدان وليس في الصور الذي هو البوق. . . وقد ردت هذه الآراء لأنها

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن حبان وأحمد والحاكم سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم الحديث (١٠٨٠).

خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة، وما عليه أهل السنة والجماعة (أن الصور بوق ينفخ فيه).

وما ذكره أيضاً بعضهم بأن الصور ياقوتة أو من نور فلا نعلم أن هناك حديثاً شريفاً صحيحاً يصف الصور بهذه الصفات.

ولكن السؤال يبقى ما هذا الصور؟ وما هي صفاته؟ وكم يبلغ حجمه؟

الصُّور: هو بوق مكلف به إسرافيل عليه السلام، لا يعلم قدر حجمه إلا اللَّه سبحانه وتعالى.. فإذا نفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر من اللَّه سبحانه صَعقَ من في السموات ومن في الأرض أي مات كل أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء اللَّه أي من استثنى منهم من الموت.. ولم يحدد لنا رسول اللَّه ﷺ قدر سعته وحجمه ودائرته... ولكن يروى أن دائرته سعة السموات والأرض... هذه رواية عن سعته... ولكن ما رأيك ببوق إذا نفخ فيه صعق ومات أهل السموات السبع والأرض إلا من شاء اللَّه... ولقد قدَّمت من قبل عن معنى السموات السبع ومقدار سعتها، وآلاف المليارات من المجرات والشموس التي تحويها السماء الدنيا فحسب ولا ندري ما في السماء الثانية والثالثة إلى السابعة؟ هذه السموات بهذا الحجم الهائل والذي لا يمكن أن تسعه عقولنا، يصعق من فيها إذا سمعوا نفخة الصعق من هذا البوق... ومهما شططنا في تقدير حجمه وسعته وقطر دائرته فلا أتصور أن يصل إلى رقم، والتقدير يعود إلى علم اللَّه سبحانه، وهذا لا ينافي الرواية بأن سعته سعة السموات والأرض واللَّه أعلم.

أحوال الناس عند النفخ في الصور نفخة الصعق

حال الناس الذين تقام عليهم الساعة ويصعقون من نفخة الصور الأولى، قد وصفها اللّه لنا في القرآن الكريم، وهو خير وصف من حكيم عليم خلق فسوى وقدر فهدى ويعلم السر وأخفى، بيده علم الماضي والحاضر والمستقبل وهو أعلم سبحانه بما يكون عليه الناس عند النفخ في الصور والإذن بقيام الساعة.

يقول تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

[سورة الحج، الآيتان: ١ ـ ٢]

الخطاب في الآية القرآنية جاء في عمومه للناس، وليس بخصوصه للمؤمنين، لأن الزلزلة وقيام الساعة يشمل خلق اللّه سبحانه جميعاً الكافر منهم والمؤمن والطائع والعاصي، وخاصة إذا علمنا أن من تقوم عليهم الساعة هم من الناس المشركين الكافرين الضالين وليسوا من المؤمنين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ وحق له التقوى اتقوه وخافوه فإنكم لا تعلمون عن قيام الساعة ـ والتي هي المصير الحتمي لجنس البشر على الأرض ـ شيئاً وما يحدث فيها وما هو كائن وحاصل. . . إن ما هو كائن وحاصل يفوق حدَّ تخيلكم وتصوركم. . . إن الزلزلة التي ستحدث وقت قيام الساعة حيث تنفجر الأرض وتخرج الأرض أثقالها من الداخل من الحمم والبراكين

والصخور الملتهبة وتطير الجبال بعد أن تتفجّر وتصبح عهناً منفوشاً يتطاير في الهواء، والسموات فوقكم تتشقق وتبدو لكم كوردة من دهان حمراء قانية ـ فإذا ما رأيتم هذه الزلزلة ـ ترمي الأم وليدها ـ وليس على الأم أحب إلى قلبها وأقرب من وليدها، فترميه هاربة مطلقة ساقيها للريح هرباً وفزعاً هذا ما تفعله بوليدها فكيف تفعل بباقي الناس؟ ومن شدة الفزع الذي يقصم الظهور ويجعل القلوب في الحناجر، تضع كل امرأه حامل ما حملت في بطنها لا تلوي على شيء هاربة إلى أين؟ لا تعلم... يا أيها الناس... وإذا نظرتم إلى الناس يومئذ يوم قيام الساعة والنفخ في الصور، وجدتموهم كالسكارى يتأرجحون يميناً وشمالاً وهم في حالة هروب وسكر يتخبطون في طريقهم لا يدرون إلى أين يذهبون، ومن شدة الفزع لا تستقيم مشيتهم ولا تحملهم أرجلهم ولا تساعدهم أقدامهم، يركضون فيقعون ثم يقفون ثم يمشون ثم يركضون لا يلوون على شيء وكأنهم في حالة سكر شديدة ـ ولكن يا أيها الناس هؤلاء ليسوا بحالة سكر وإنما هذا عذاب اللَّه تعالى.

يقول تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

تدل الآيات الكريمات من سورة يس: أن الناس عند قيام الساعة يكونون في حالة اجتماعية لا بأس بها حيث هم في حالة بيع وشراء وتخاصم تجاري ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يتخاصمون في البيع والشراء، وتدل أيضاً على أن الناس يكونون كما في كل يوم اعتيادي فيه حياة وحركة وعمل وهم موزعون ما بين الطرقات والأسواق والبيوت... فإذا قامت الساعة بغتة عليهم، فلا يستطيع أي منهم أن يغلق محله التجاري ثم يعود إلى أهله ومنزله، وكذلك أهله لا يستطيعون أن يأتوا إليه، كل في مكانه يفزع ويصعق بعد أن يرفع رأسه ويمد عنقه للحظة واحدة ليستطلع هذا الصوت الهائل (الصيحة)، أي نفخة البعث التي تأخذه وتأخذ كل من حوله من الكافرين والضالين.

ـ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقى منه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»(١) .

. . . ويبقى السؤال؟ ـ تقول الآيات الكريمات من سورة يس: إنه في لحظة قيام الساعة يكون الناس في حالة بيع وشراء وتخاصم أي إن هناك حياةً اعتيادية، فحركة البيع والشراء والأسواق تدل على هذه الحياة الاعتيادية والطبيعية، فكيف يكون هذا ورسول اللَّه ﷺ يقول وفي حديث قدّمناه:

«أن النار تخرج من أرض عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر في الشام وهي آخر العلامات الكبرى»

في هذه الحالة يكون هناك احتمالان لا ثالث لهما:

الاحتمال الأول: وهو الذي قدمنا عنه، وهو أنه لما يكتمل حشر الناس إلى أرض المحشر (بلاد الشام) بواسطة النار التي يرسلها اللَّه سبحانه من اليمن، وتحديداً من قعر عدن والتي تسوق الناس إلى محشرهم، فإذا وصلوا بلاد الشام والنار من حولهم، تستقر بهم الأحوال فترة من الزمن لا ندري كم هي؟ يستقرون في بيوت ويتبايعون ويشترون لتحقيق مطالب حياتهم.. ثم تأتيهم الساعة بغتة كما في الآيات من سورة يس تأتيهم وهم يتخاصمون في الأسواق فلا يستطيعون فعل شيء ولا يستطيعون إغلاق محالهم والعودة إلى بيوتهم ورؤية أهليهم وزوجاتهم وأولادهم.

الاحتمال الثاني: كما ذكر ابن كثير في تفسيره وأيده فيه شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) وكذلك السفاريني (٣) وابن العربي الفقيه المالكي.

يقول ابن كثير في تفسيره (٤) في قوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفتن فتح الباري (١٣/ ٨٢).
(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٦٠).
(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٦١).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير صفحة ١٦٥ جزء ٣.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهذه نفخة (الفزع) والله أعلم.

في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ (١).

يقول ابن كثير في تفسيره: ينفخ في الصُّور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر اللَّه عز وجل إسرافيل أن ينفخ نفخة (يطولها). فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً وهي صفحة العنق يتسمع من قبل السماء ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم.

ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي على ما يملكـونه فالأمر أهم من ذلك، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ . . . ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث واللَّه أعلم.

(١) سورة النمل آية (٨٧).

ما معنى أن الساعة ثقلت في السموات والأرض؟؟ لا تأتي إلا بغتة

يقول تعالى:

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٨٧]

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ القول بأن تفسيرها يحتمل أكثر من معنى، لأن كلمة (ثقلت) المراد منها بالنسبة إلينا نحن البشر أمر صعب، لأنه حتماً هو فوق قدرة تحمل عقولنا، ذلك أن مجاهل السموات تخفى عنا، وسَعة السموات وما فيها من علم اللّه وقدرته فقط. وقد قدّمت معاني السماء وما فيها من المجرات والعناقيد المجرية، وبما أن كل هذا سيكور وينفجر فليس الأمر هيناً. لذلك فالأمر ثقيل وثقيل جداً على ساكني السموات وساكني الأرض، وثقيل أيضاً على ما خلق اللّه من النجوم والكواكب مع عظيم خلقها وسعة أماكنها. هذه الشموس الهائلة التي تتوقد بالنار والتي يبلغ حجم إحداها حجم الأرض ملايين المرات، ستكور وتنكمش وتذهب نارها وتلف وتصبح أخيراً في قبضة الرحمن، والمعنى المراد أيها البشر: إن الساعة وقيامها أمر عظيم وهي ثقيلة ليس عليكم فحسب وإنما ثقيلة حتى على السموات كلها وساكنيها.

ومنها قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

[سورة المزمل، الآيات: ١ ـ ٦]

ومعنى ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ كما في التفسير عند ابن كثير عن الحسن وقتادة أي ثقيل وقت نزوله من عظمته.. وعلى هذا نقول: إن الساعة ثقلت في السموات من عظيم أمرها وما يكون فيها من أحداث جسام عظام.

ولنقرأ ما قاله الصحابة في قوله تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

قال قتادة: ثقل علمها على: أهل السموات والأرض.

قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم.

قال ابن عباس (١): ليس من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة.

قال ابن جريج: إذا جاء انشقت السماء وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال وكان ما قاله تعالى فذلك ثقلها.

قال ابن جرير: إن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما **قال قتادة** كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ ولا ينفي ذلك ثقلُ مجيئها على أهل السموات والأرض.

قال السُّدي: خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها حيث تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير مختصر ابن كثير صفحة ٧٠ مجلد ١.

أحوال الأرض وزينتها والجبال والبحار عند قيام الساعة... كما جاء في القرآن الكـــريم

كثيرة هي الآيات الكريمة التي فصلت حال الأرض التي نعيش عليها وقت قيام الساعة، وجميعها تبين عظيم الهول والخراب والدمار الذي يحل بأرضها ـ وجبالها ـ وبحارها ـ وأنهارها ـ وصحرائها ـ ووديانها وما بقي من آثار حياة آدمية يومئذ على ظهرها من بناء ومساكن وحدائق وطرق وجسور.

وقبل كل شيء فقد بين اللّه سبحانه أنه جعل ما على الأرض من زينة وخيرات ورزق، ليبتلي عباده ويمتحنهم فإذا جاء وعد الآخرة ووقت قيام الساعة.

فإن اللّه سبحانه يعيد ما استخلفنا فيه إليه ويعود الإرث لصاحبه الذي وضعه أمانة بين أيدينا ومن ثم يجعل ما عليها من جبال وبحار وأنهار صعيداً جرزاً.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾.

[سورة الكهف، الآيتان: ٧ ـ ٨]

صعيداً جرزاً: تراباً أجرد لا نبات فيه.

ويقول تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾.

[سورة مريم، الآية: ٤٠]

ويقول تعالى:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

[سورة الحجر، الآية: ٢٣]

ويقول أيضاً:

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٨٠]

١ ـ حال الأرض وقت قيام الساعة:

تفقد الأرض يوم القيامة مقومات بقائها وجمالها ووجودها، بما يحدث فيها من خراب وتشقق وذهاب لكل أثر من حياة، فلا يبقى فيها زرع ولا بهيمة ولا حدائق ولا ماء ولا أنهار ولا بحار ولا جبال، والتي تشكل مجتمعة سر جمال الأرض وسبب تمكينها وثباتها وعدم مَيلانها وميدها.. فالأرض كل متكامل ويوم تقوم الساعة ينفي اللّه سبحانه عنها سر بقائها وجمالها، لأن دورها الذي رسمه اللّه لها قد توقف من حملها لابن آدم على ظهرها طوال هذه الفترة وهو يمتحن عليها.

يقول تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾.

[سورة الواقعة، الآيات: ١ ـ ٤]

ويقول تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

[سورة الحاقة، الآيات: ١٣ ـ ١٥]

ويقول أيضاً:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾.

[سورة المزمل، الآية: ١٤]

ويقول عز وجل:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾.

[سورة الفجر، الآية: ٢١]

ويقول سبحانه:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

[سورة الزلزلة، الآيات: ١ ـ ٥]

كل هذه الآيات الكريمات لقيام الساعة، وحال الأرض التي نعيش عليها وقت قيامها... وكلها تقول والله القائل الخبير بملكه وبالأرض وما على سطحها وما في باطنها وأعماق أعماقها يخبرنا عن نهايتها ولفظها ما في باطنها.

... وإذا عدنا قليلاً إلى علماء الجيولوجيا أو علم الجيولوجيا فكلاهما يقول: إن في باطن الأرض أتوناً من الحمم والبراكين والصخور والمعادن المنصهرة، ويقول علماء الجيولوجيا: إن درجة الحرارة في باطن الأرض تتجاوز المئات من الدرجات وما سطح الأرض إلا طبقة رقيقة نسبياً بالنسبة لطبقات باطن الأرض... والله سبحانه بقدرته هو الذي بسط الأرض ومدَّها وبرّدها لتكون ساكنة بالظاهر يتعايش عليها الناس، وسلك فيها سبلاً وفجاجاً، وبسطها ودحاها فسوّى نتوءاتها لتصلح معايش للناس والآيات في هذا الأمر كثيرة نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر.

يقول تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

[سورة نوح، الآيتان: ١٩ ـ ٢٠]

ويقول تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

[سورة الزخرف، الآية: ١٠]

ومع ذلك فلولا الجبال التي أرساها الله سبحانه في الأرض فإن سطح الأرض سيكون دائماً بحالة اضطراب ومرج وميد، ولا يمكن للحياة أن تستمر، ولا يستطيع الناس كسب معايشهم على سطحها بفعل البراكين الهائلة في جوفها وحالة الغليان والانصهار من صخورها ومعادنها الملتهبة.

يقول تعالى:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٥]

ويقول تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

[سورة النبأ، الآيتان: ٦ ـ ٧]

فهذه الآيات الكريمات تشير إلى أن اللَّه سبحانه بقدرته مدَّ لنا الأرض وبسطها، وجعل فيها السبل والفجاج، وأرسى فيها الجبال لتكون أوتاداً للأرض، فلا تميد بنا أي تتحرك وتضطرب من تحتنا فلا نهنأ بعيش ورزق أو قل لا يمكن عندئذ للبشر الحياة فوق أرضها.

هذه النعمة الإلٰهية وهذه القدرة الإلٰهية في خلقه للأرض وتسويتها بما يصلح معاشاً للناس تبقى بأمر اللَّه فهي تعطي الكافر والمؤمن والطائع والعاصي لضرورة الابتلاء والامتحان... فإذا جاء الوعد الحق وتوقف امتحان البشر على الأرض ولم يعد لبقائها ضرورة، فإن الحال ستتغير وُيعطى لها الأمر من اللَّه سبحانه، فتكون وقت قيام الساعة كما أمرها اللَّه سبحانه وكما بينَّا في آياته التي ذكرت.

فأول الأمر ترجف الأرض رجفاً شديداً وكأنها في بداية زِلزال عظيم ثم ترج رجًّا عنيفاً وهي بداية إزالة ما عليها من معالم من بيوت وقصور وعمارات شاهقة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾.

ثم تدك دكاً متتابعاً ثم تدق وتكسر وتتشقق وتتباعد الأرض بعد الانشقاق عن بعضها بعضاً، وربما يصبح بينها أخاديد عظيمة بفعل الدق والدك المستمر المتتابع.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾.

ثم تحمل هي والجبال فتدك دكة واحدة وهذا أعظم الهول كمن يرفع شيئاً ثم يخبطه على الأرض خبطاً شديداً فيتحول هذا الشيء إلى فتات متناثر.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ وتتمة القول:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي بعد هذا الحمل والدك أصبح الأمر فصلاً وليس هَزْلاً، لأن الواقعة وقعت والساعة قامت والقيامة قد أزفت.

وأعظم الوصف عن حالة الأرض عند قيام الساعة ما جاء في سورة الزلزلة فإن فيها من الآيات الإلٰهية والمعجزات الشيء الكثير، فيها النهاية، نهاية الحياة على الأرض وفيها البداية ـ بداية القيامة والحساب من إلٰه هو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، حيث يبين الله سبحانه معجزاته في دك الأرض وإخراج أثقالها وفي صدور الناس بعدها أشتاتاً أي إخراجهم من باطنها ليحاسبوا حساباً دقيقاً يفوق خيال البشر لدقته وعدله سواء كان خيراً أو شراً سواء كان مقداره مثقال ذرة والتي لا ترى إلا بالمجهر وبعد تكبيره مئات المرات أو أكبر من ذرة أو أصغر ولنقرأ السورة ولنتمعن آياتها ولندرك عظمتها وإعجازها.

يقول تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

[سورة الزلزلة، الآيات: ١ ـ ٨]

يا لها من آيات عظيمة لو تمعنا فيها أو أعدنا قراءتها مراراً، لكفتنا علماً، وأدركنا حقيقة ما سيكون مستقبلاً، وهذا العلم الذي يجب أن نعلمه وندركه، والحقيقة التي لا مهرب منها ولا مناص، حقيقة الساعة والقيامة والعقاب والجزاء، والذي تدور عليه حياتنا الدنيوية وما وجودنا جميعاً إلا لتتحقق هذه الحقيقة في النهاية.

فالأرض تزلزل زلزالاً عنيفاً وتخرج ما في باطنها من جميع أنواع الحمم والبراكين وتقذف بالصخور والمعادن الملتهبة حالة غليانها وزلزلتها إلى ما فوق الأرض بعشرات الأمتار، ثم تعود بلهيبها لتستقر على الأرض، ثم يقذف غيرها في منظر يجعل القلوب تصل إلى الحناجر هلعاً وخوفاً... يومئذ البشرُ على الأرض والذين تقوم عليهم الساعة يسألون بخوف وهلع ـ

ماذا حصل ـ وما لها تفعل هكذا؟ وكنا نعيش عليها بسلام وأمان؟ ـ فيومئذ تحدث أخبارها بعد أن يخرج الناس الموتى من باطنها ويأتون بأعمالهم. . يوم تقول الأرض: إن اللَّه سبحانه أوحى إليَّ بما ترون من الزلازل والحمم والبراكين. . . ثم يقول اللَّه سبحانه: يومئذ يخرج الناس من باطنها أشتاتاً موزعين استعداداً ليوم الفصل والحساب والعدل والذي ميزانه يزن مثقال الذرة لعظيم دقته.

. . . واللَّه سبحانه جعل لنا في حياتنا الدنيا مثل هذه الزلازل، وكم حدثت وراح ضحيتها الملايين من البشر، وما ذلك إلا ليعلم الإنسان ما معنى زلزال الأرض عند قيام الساعة. ولو أن الأرض التي نعيش عليها لم تصبها الزلازل مئات المرات لما أدركنا معاني مثل هذه الآيات الكريمة ولكننا أدركنا ولذا نستعد لها ولكن بطاعة اللَّه سبحانه.

ولنقرأ في تفسير ابن كثير وما قاله عن سورة الزلزلة وما في تفسيره من أقوال الصحابة والعلماء:

قال ابن عباس: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾: أي تحركت من أسفلها.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

وفي الحديث: «**تلـقي الأرض أفلاذ كبـدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجـيء السـارق فـيقول: في هذا قطـعت يـدي. ثم يدعـونه فـلا يأخـذون منـه شيئـاً**»[1]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارَّة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها أي تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر اللَّه تعالى ما قد أعده لها، من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذ يستنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا للَّه الواحد القهار، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**» قالوا:

الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها**»(١).

وفي معجم الطبراني: «**تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة**»(٢).

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى له ووحى لها، ووحى إليها، وكذا قال ابن عباس: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أوحى إليها، والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها، وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال لها ربها: قولي، فقالت؛ وقال مجاهد: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أمرها، وقال القرطبي: أمرها أن تنشق عنهم، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، وقال السدي: ﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ليجازوا بما عملوه من خير وشر، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر**» الحديث. فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر؟ فقال: «**ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»(٣).

وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني.

(٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

يَرَهُۥ﴾ قال: **حسبي أن لا أسمع غيرها**(١)، وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة**»، وله أيضاً في الصحيح: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط**»(٢). وفي الصحيح أيضاً: «**يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسنَ شاة**»(٣) يعني ظلفها، وفي الحديث الآخر: «**لا تردوا السائل ولو بظلف محرق**».

وعن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان**»(٤). وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثاقيل الذر، وروى ابن جرير عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه عنده قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**ما يبكيك يا أبا بكر**»؟ قال:

يبكيني هذه السورة، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر اللَّه لكم لخلق اللَّه أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم**»(٥).

وروى ابن أبي حاتِم، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد اللَّه النار على الكبائر، فرغّبهم في القليل

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه أحمد.

(٥) أخرجه ابن جرير.

من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [١] يعني وزن أصغر النمل ﴿خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك؟ قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف اللَّه حسنات المؤمنين أيضاً بكل واحدة عشراً ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة. وروى الإمام أحمد عن عبد اللَّه بن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول اللَّه ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً [٢]، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها [٣].

٢ ـ حال الجبال عند قيام الساعة:

الجبال هذه الآية العظيمة من اللَّه التي زين اللَّه سبحانه فيها الأرض وثبتها.. هذه الجبال التي ألقاها سبحانه على الأرض وأرساها وجعلها أوتاداً.

هذه الجبال التي جعلها اللَّه سبحانه لنا متاعاً وجمالاً، وجعل فيها من المنافع للبشر الشيء الكثير، وجعل فيها المعادن من الحديد والذهب والفضة منافع للناس في حياتهم الدنيا.

هذه الجبال التي جعلها اللَّه سبحانه ذات أحجام وارتفاعات متفاوتة، وذات ألوان خلابة تتناسب والموقع الذي هي فيه، فمن ارتفاع جبال الهملايا في الهند حيث تصل أعلى قمة فيها إلى (٨٨٨٨) متراً إلى مناطق لا يتجاوز ارتفاعها أمتاراً معدودة، وكذلك ألوانها تختلف باختلاف الأرض والبيئة فمن الأصفر إلى البني إلى الأسود إلى الأخضر والأحمر والأرجواني، ومناظرها ومنافعها تمتع الإنسان في حياته الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير في تفسير سورة الزلزلة.

قال تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

وأما عظيم خلقها حيث يقف الإنسان أمامها مذهولاً من هذه القدرة الإلٰهية! حيث يصل الجبل الواحد في ضخامته إلى آلاف الأمتار طولاً وعرضاً وضخامة!!

... كل هذا يتحول عند قيام الساعة إلى سراب وهباء وعهن منفوش كل هذه الجبال والتي يزن الجبل الضخم الواحد منها آلاف الملايين من الأطنان تتحول عند قيام الساعة إلى سراب وإلى قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، دون ديناميت ولا متفجرات ولا قنابل ولا طائرات إنما من وحي لها من ربها.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾.

[سورة الزلزلة، الآيات: ٤ ـ ٥]

يقول تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾.

[سورة طه، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٧]

وإذا نسفت الجبال ومهما كانت صلبة وشاهقة فإنها تتحول إلى فُتات وتراب وهباء.

يقول تعالى: عن حال الجبال عند قيام الساعة:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾.

[سورة الكهف، الآية: ٤٧]

نسيِّر الجبال: نحرك الجبال من أماكنها.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾.

[سورة النمل، الآية: ٨٨]

والمعنى هذه الجبال القوية الجامدة في أماكنها ستكون كالسحاب الذي يسير بسرعة.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ .

[سورة الطور، الآيتان: ١٠ ـ ١١]

تمور السماء: تضطرب وتدور كالرحى ـ تسير الجبال: تتحرك من مكانها.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ .

[سورة الواقعة، الآية: ٥]

رجّت الأرض: زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ـ وبست الجبال: فتتت الجبال.

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ .

[سورة المعارج، الآيتان: ٩ ـ ١٠]

الجبال كالعهن: كالصوف المصبوغ ألواناً.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ .

[سورة المزمل، الآية: ١٤]

ترجف الأرض والجبال: تضطرب وتزلزل.

﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ .

[سورة المزمل، الآية: ١٤]

كثيباً مهيلاً: رملاً مجتمعاً سائلاً منهالاً.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ .

[سورة المرسلات، الآية: ١٢]

الجبال نسفت: قلعت من أماكنها بسرعة.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

[سورة النبأ، الآية: ١٤]

فكانت سراباً: كالسراب الذي لا حقيقة له.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ .

[سورة القارعة، الآية: ٥]

كالعهن: كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة[١].

---

(١) معاني الكلمات وبيانها: من كتاب كلمات القرآن الكريم للشيخ حسنين محمد مخلوف.

كل هذه الآيات الكريمات تشير إلى أن أمراً عظيماً وجللاً سيحدث لهذه الجبال الراسيات والرواسي الشامخات، والتي هي ثابتة جامدة عند قيام الساعة راسية في مكانها ولكنها كما قال تعالى: ﴿ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ ثم تفتت إلى قطع صغيرة جداً ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ ثم تتحول إلى ما يشبه قطع الصوف الصغيرة الملونة التي تتطاير في السماء لخفتها، ثم تتفتت هذه الفتات حتى تتحول إلى حبات رمل مجتمعة ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾.

ثم تكون في النهاية سراباً لا حقيقة ولا وجود لها وكأنها لم تكن ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾.

[سورة النبأ، الآية: ٢٠]

هذه هي حقيقة الجبال عند قيام الساعة، وما ذلك إلا كي تسوَّى الأرض بعد أن تلقي أفلاذ أكبادها من الموتى الذين دفنوا في باطنها وعلى مدى ألوف السنوات، والذين يبلغ عددهم المليارات، بعد أن تتلقى الأمر من اللَّه سبحانه يقول تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

[سورة الانشقاق، الآيات: ٣ ـ ٥]

ويقول **ابن كثير** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي تصير ككثبان الرمال بعدما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ ـ أي وادياً ـ ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي رابية، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

ويقول أيضاً في تفسيره لقوله تعالى:

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي كقوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ وقال ههنا: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي تخيل إلى الناظر أنها شيء وهي ليست بشيء وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر.

وقال في تفسير ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد: «العهن» الصوف(١).

(١) مختصر ابن كثير في تفسيره لسورة المزمل والنبأ والقارعة.

٣ ـ حال البحار عند قيام الساعة:

البحار ثلاثة أرباع الكرة الأرضية أو أربعة أخماسها أي إنها تشكل معظم الأرض.. وما ذكرت عن دمار البحر وزلزال الأرض وتسيير الجبال وتحويلها إلى سراب، فهذا كله حاصل فقط في ربع الكرة الأرضية فكل هذا الدمار الهائل ونحن لا نزال في ربع الكرة الأرضية.

فماذا عن البحار والتي تشكل الجزء الأكبر فهل تبقى على حالها أم يصيبها كما أصاب الأرض والجبال من الدمار والزلازل والرج والانشقاق.

هذه البحار الرائعة بخيرها وجمالها وما خلق اللّه فيها من ملايين الأنواع من الحيوانات البحرية والإسفنجية والمرجانية، سخرها سبحانه للبشر على هذه الأرض، هذه الحياة العامرة في تلك البحار الرائعة والتي خلقها اللّه سبحانه... فقد أنعم علينا سبحانه أبناء هذا الجيل أننا رأينا جانباً منها بواسطة ثياب الغطس والتصوير وبواسطة آلات الغطس الجبارة كالغواصات والسفن الحديثة. فمتعنا اللّه سبحانه برؤية هذه الحياة العامرة في البحار ورأينا بأم أعيننا قدرة اللّه في الخلق فحبانا دون غيرنا لنرى هذه العظمة وهذه النعمة... وليس هذا فحسب ولكن بواسطة هذه التكنولوجيا والآلات الحديثة تمتعنا بأكل لحوم البحار من شتى الأصناف والأنواع ما لم يحظ به أحد غيرنا.. وكل هذا نعمة لنا ولمن سيأتي بعدنا، وكل هذا سخّره اللّه لنا كما سخر لنا الأرض وما فيها والسموات وما فيها.

وطيّع قانون الماء وكثافته لتطفو عليه أخشاب الأشجار فنصنع منها الفلك (القوارب) فنستطيع السير في البحار واستغلال ما فيها من خيرات عظيمة.

يقول تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٣٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

[سورة النحل، الآية: ١٤]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

[سورة لقمان، الآية: ٣١]

ويبين اللّه سبحانه لنا أنه سخر لنا الفلك والبحار والأرض والسموات جميعاً منه رحمة ونعمة وكرماً وعطاء من إلٰه كريم رحيم.

يقول تعالى:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[سورة الجاثية، الآيتان: ١٢ ـ ١٣]

. . . كل هذه النعم في هذه البحار سخرها اللّه سبحانه لنا في حياتنا الدنيا، ستتحول عند قيام الساعة إلى دمار وخراب وأتون من النار الملتهب تسعَّر وتسجر وتحترق وتشتعل فيها النيران اشتعالاً، فتبدو معها الأرض كلها تحترق في هذا الأتون الهائل من النيران.

. . . ولقد قدَّمت في الجزء الثامن من هذه الموسوعة معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ في التفسير العلمي الحديث بعد أن اكتشفوا أخاديد النار والحمم في كل بحار العالم.

﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾.

[سورة الطور، الآيات: ١ ـ ٦]

البحر المسجور: هو البحر المشتعل بالنار وهذه خاصية لا تكون بأمر اللّه إلا عند قيام الساعة حيث يعطي اللّه الأمر باشتعالها وتسجيرها وفي تذكير لما قلت: عن الاكتشافات العلمية والبحار المسجرة بالنار.

لقد أثبت العلم الحديث عن طريق السفن الغواصة وجود أخاديد تخرج منها النار والحمم في أعماق البحار في أوائل القرن العشرين. . ولما تقدم العلم وكثرت النظريات التطبيقية والعلمية، وجدوا أن تلك الحمم والبراكين والصدوع والشقوق الموجودة على سطح الأرض مهمتها جميعاً حفظ توازن الأرض. وبما أن البحار تشكل أربعة أخماس الكرة الأرضية وهي الجزء الأكبر من الأرض. . فمن الطبيعي وجود صدوع وشقوق وأخاديد في قاع

البحار مهمتها أيضاً التنفيث عن تلك الحمم التي تغلي في أعماق الكرة الأرضية[١] . . . لقد عرف العلماء بوجود تلك الأخاديد منذ عشرات السنين فقط ولكنها موجودة بقدرة اللّه منذ ملايين السنين ومنذ خلق اللّه سبحانه الأرض.

إذاً اللّه سبحانه هو العالم بحال الأرض وبحارها فهو الأول والآخر، وهو الذي خلق وهو أعلم بما خلق، وأعلم ببقاع البحار وأعلم بتلك الحمم والأخاديد التي تحفظ الأرض في الحياة والتي تكون سبباً لاشتعال البحار وتسجيرها يوم القيامة مع الشمس التي تتعاون وتلك الأخاديد لاشتعال البحار.

(١) راجع كتاب المعرفة (البحار والمحيطات) الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة.

الفصل الثاني

آيات اللَّه في بعث الخلائق

- مدخل كل من عليها فان.
- وعد اللَّه سبحانه بالبعث في القرآن الكريم.
- كيف ترسل الأرواح إلى الأجساد عند نفخة البعث؟؟
- قدرة اللَّه سبحانه في بعثه للخلائق جميعاً.
- قدرة اللَّه في بعث الخلائق كبعث نفس واحدة.
- حال الناس عند خروجهم من القبور.
- هل تتغير الأجساد عند بعثها وخروجها من القبور وتنشأ نشأة أخرى؟؟
- هل يبعث مع الإنسان الجن والوحش عند نفخة البعث؟؟

مَدخل
كل من عليها فان

إن اللَّه سبحانه يميت كل الخلائق من النفخة الأولى في الصور إلا من يستثني اللَّه سبحانه بعلمه يقول تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

ولقد بينا كذلك الآراء حول الذين استثناهم اللَّه سبحانه من الصعق (الموت) عند النفخة الأولى... لكن الآيات القرآنية تؤكد أنه وقبل النفخة الثانية للبعث والنشور يميت اللَّه سبحانه كل أولئك الذين استثناهم من الموت عند النفخة الأولى، ودليل ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى بين لنا في الآيات الكريمة التي تخص يوم القيامة أن كل الخلائق هالك وميت ولا يبقى إلا وجهه الكريم، وما ذلك إلا لتعلم الخلائق جميعاً ومهما كان وضع أحدهم وقربه من اللَّه سبحانه أنه يصيبه ما يصيب الخلائق من الحياة والموت والبعث والنشور

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ١٦]

ويقول تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٨٠]

ويقول سبحانه:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

[سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧]

وتؤكد الآية الكريمة من سورة القصص هلاك كل مخلوقات اللَّه تعالى دون استثناء لأحد.

يقول تعالى:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

[سورة القصص، الآية: ٨٨]

وفي هذه الآيات الكريمة بيان من اللَّه سبحانه أنه غني عن العالمين ملائكته وإنسه وجِنّه وما لا نعلم من خلق اللَّه سبحانه.. ولقد أكد اللَّه سبحانه في أكثرَ من آية كريمة استغناءه عن العالمين جميعاً.

يقول تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٦٤]

ويقول تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

[سورة لقمان، الآية: ٢٦]

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٦]

ويقول أيضاً: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٣٣]

وكذلك فإن اللَّه سبحانه في إهلاكه لكامل الخلق وتحقيق الموت فيهم جميعاً، بيان منه جل جلاله بأنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ففي تعميم الموت يجمع اللَّه كامل العدل الإلٰهي الذي وصف نفسه به.

يقول تعالى:

﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

[سورة هود، الآية: ٤٥]

ويقول تعالى:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

[سورة التين، الآية: ٨]

ويقول سبحانه:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ١٥٥]

نعم لا تبديل لكلماته وهو القائل:

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ .

[سورة القصص، الآية: ٨٨]

.. وأما قوله ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ ﴾ .

[سورة الأنعام، الآية: ١٣٣]

فإن في معناها الكثير ـ فاللّه سبحانه يقول: إنه الغني، الغني عن خلقه جميعاً سواء كانوا ملائكة أو إنساً أو جناً، ولكنه ذو الرحمة.. فإذا أماتهم جميعاً قبل يوم القيامة، فَمَنْ يكون الشاهد على اللّه سبحانه في إعادة خلقه وقد ماتوا جميعاً؟ ولم يبق لا شهيد ولا رقيب من ملك ولا رسول؟... ولكن رحمة اللّه تكفي. ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ ﴾ فمن رحمته يعيد خلقه ويبعثهم ليوم القيامة ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى والجنةِ والذين كفروا بجهنمَ خالدين فيها أبداً.

وعد اللّه سبحانه بالبعث والنشور في القرآن الكريم

لقد وعد اللّه سبحانه في كتابه العزيز رسله والناس جميعاً بالبعث والنشور والعودة إليه، وأقسم على هذه العودة ثم بين لنا بالحجة والبراهين بعث الناس من قبورهم وعودتهم إلى اللّه سبحانه لحسابهم وجزائهم، وتعددت الآيات القرآنية الكريمة، وقد عرضها اللّه سبحانه بالمحاجّة العقلية من خلال هذا العقل الإنساني الذي وهبه اللّه سبحانه للبشر، والذي يوصلهم إلى أن اللّه سبحانه حق وأن خلقهم حق وبعثهم حق وحسابهم حق وأن الآخرة حق وأن يوم القيامة لا ريب فيه من خلال قدرة اللّه سبحانه على الخلق والإعادة.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤]

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٩٥]

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

[سورة يونس، الآية: ٤]

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

[سورة فاطر، الآية: ٥]

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

[سورة التوبة، الآية: ١١١]

. . . نعم إنه الوعد الحق من اللَّه سبحانه، ومن أصدق من اللَّه وعداً؟ ومن أعظم من اللَّه رحمة؟ ومن أقدر من اللَّه على البعث والنشور؟ وهو الخالق وهو الذي يحيي ويميت وبيده الأمر وإليه يرجع الأمر كله، وكم من الآيات الكريمة التي بين اللَّه سبحانه لنا فيها أنه يحيي ويميت وليس غيره قادراً على فعل ذلك لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، مهما كَبُر أمره وشأنه وعظم خلقه، فلا يملك أحد سواه الحياة والموت والنشور.

يقول تعالى:

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

[سورة الفرقان، الآية: ٣]

فلا أحد من العباد يملك الموت والبعث والنشور سوى اللَّه سبحانه، فهو القادر على هذا وحده دون خلقه أجمعين، وصفة الإحياء والإماتة صفتان إلٰهيتان. وهذه البشرية وعمرها على الأرض عشرات الآلاف من السنين ماذا فعلت بالموت فهل استطاع أحد أن ينفيه عن نفسه أو أن يدفعه؟ وكم حاول الكثير من البشر الاحتفاظ بحياتهم أو تطويلها أو الاحتفاظ بشبابهم فما استطاعوا لذلك سبيلاً.

يقول تعالى:

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٦٨]

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

[سورة النساء، الآية: ٧٨]

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

[سورة العنكبوت، الآية: ٥٧]

واليوم في عصر الحضارة والتكنولوجيا حاول كثير من العلماء إطالة العمر أو دفع الهرم والموت فما استطاعوا لذلك سبيلاً أيضاً. . . ذلك أن اللَّه سبحانه وفي أساس خلقه لم يجعل للهرم ولا للموت دواء يدفعهما أو يؤخرهما. . فخلايا الإنسان مبرمجة من اللَّه سبحانه نشوء وقوة ثم الهرم ثم موت لا محالة، ولا سبيل للخلاص أبداً منهما، تطور العلم ووصل إلى أعلى المراتب التي يمكن أن يصل إليها العقل البشري، لأن البشرية

تبقى أولاً وأخيراً ضمن الدائرة التي رسمها اللَّه سبحانه لها.

يقول تعالى:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٥]

عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء إلا الهرم**»[١].

عن أبي سعيد رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «**إن اللَّه تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله إلا السام وهو الموت**»[٢].

ويؤكد اللَّه سبحانه أنه هو الذي يميت، وهو الذي يحيي الموتى في عشرات الآيات القرآنية، وذلك لتطمئن قلوب العباد، واعتبر اللَّه سبحانه الذين يمارون في إحياء الموتى أنهم لفي ضلال بعيد، ولفي ضلال كبير، والذين لا يقدِرون للَّه حقه ولا يعتقدون بالبعث والإحياء والنشور أولئك الذين لا يعلمون عن اللَّه شيئاً ولا يقدرون قدرته وعلمه وعظمته، وأنه الخالق الذي يقدر على الخلق ويقدر على الموت ويقدر على الإحياء والبعث للخلائق جميعاً يقول تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

[سورة الجاثية، الآية: ٢٦]

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ١٥٨]

وفي آية جامعة شاملة يقول تعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨]

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك حديث صحيح. السيوطي في الجامع الصغير.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك. السيوطي في الجامع الصغير.

ولقد أقسم اللّه سبحانه على هذه العودة وعلى هذا البعث، وقال عنه: إنه حق وقول فصل مثلما أنكم تتكلمون وتنطقون، فكما أن كلامكم ونطقكم لا ريب فيه كذلك فإن العودة والبعث والنشور حق لا ريب فيه أبداً.

يقول تعالى:

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٢٣]

ويقول تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

[سورة القيامة، الآيات: ٣٦ ـ ٤٠]

ثم يقسم اللّه تعالى مؤكداً قوله وينبه الناس ثم يبين لهم عظمته وقدرته ليس في إحياء الميت وبعثه ونشره فحسب، بل في إعادة بنانه (أصبعه) كما كان قبل الموت، وهي عملية إعجازية في الخلق والإعادة كون الإبهام له بصمة إنسانية منفردة بواسطة خطوطها الحلزونية.

يقول تعالى:

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾.

[سورة القيامة، الآيات: ١ ـ ٤]

وحتى لا يقف الإنسان مستغرباً أو متعجباً كيف تكون إعادة الأموات أحياء بعد فنائهم وبلائهم، وتحولهم إلى عظام نخرة وتراب، بين اللّه سبحانه لنا أن إعادة البشر إلى الحياة بعد الموت هي عملية أهون عليه من الخلق، وكلا الأمرين على اللّه سبحانه هين، ولكن حتى تطمئن قلوب الناس ولا تتساءل نفوسهم عن كيفية عودتهم مرة أخرى إلى حياة وقد تحولوا عظاماً وتراباً.

يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٢٧]

ثم يتوجه الله سبحانه إلى البشرية بالخطاب العقلي والتوجه القلبي والإثبات الفكري طالباً منهم النظر والبحث والتقصي.

يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٥]

كيف ترسل الأرواح إلى الأجساد عند نفخة البعث؟

حينما يحيي اللَّه تعالى إسرافيل عليه السلام ويأمره أن يلتقم الصور، يضع اللَّه سبحانه جميع الأرواح الموجودة في علم اللَّه في هذا الصور، وحينما ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ترسل الأرواح بما يشبه لمح البصر، وكل روح تدخل في جسد صاحبها، ولا يمكن لأي روح أن تخطئ جسدها، وذلك منطقي وعقلي فإن الروح لها شيفرة خاصة مبرمجة، والجسد له ذات الشيفرة المبرمجة ولا يمكن أن يتم التحام خاطئ.

فالجسد يرفض دخول أي روح أخرى لأنها لا تتوافق مع تركيبه ونسجه، فليس في الكون كله روح تناسب جسدي إلا روحي التي كانت معي في حياتي الدنيا، وهنا تكمن قدرة اللَّه تعالى التي لا يمكن لعقولنا أن تحيط بها أو ببعض منها إلا ما شاء اللَّه تعالى.

وعملية الالتحام بين الروح والجسد عملية تخرق قانون الزمن ويتضاءل معها الزمن حتى يكون صفراً.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

[سورة القمر، الآية: ٥٠]

والدليل على انقهار عامل الزمن قوله تعالى في كتابه الكريم:

قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

[سورة الزمَر، الآية: ٦٨]

فلا نجد في هذه الآية الكريمة أي وجود لعامل الزمن، فلحظة النفخ لحظة القيام والنشور، وأول كلمة تقولها البشرية حينما ترى آيات اللَّه حقيقة أمام أعينها، حيث لم تعد غيباً ولم تعد إنذاراً إنما هي حقيقة جلية للجميع يحسونها بكل أحاسيسهم ـ هي كلمة الحسرة والندم والخوف (يا ويلنا).

قال اللّه تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

[سورة يس، الآيتان: ٥١ ـ ٥٢]

وربما يدخل هذا التساؤل عموم الناس في البداية لأن منظر الحشر لمليارات البشر دفعة واحدة يخرجون من أجداثهم عراة حفاة، لا يُميَّز فيه بين كبير وصغير ولا عبد ولا أمير، ولكن يثبت اللّه الذين آمنوا في البداية ويحقق لهم ما وعدهم من الوعد الحق.

قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣]

وحينما تنتهي لحظة المفاجأة المذهلة، يعود كل إنسان إلى ذكرى من يكون هو؟ ثم ما كان عليه.

قال اللّه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾.

[سورة النازعات، الآية: ٣٥]

فاللحظات الأولى ذهول مطلق للجميع، ثم تظهر حقائق النفوس من خلال التذكر السريع، فيعود المؤمن إلى نفسه سريعاً، ويتذكر العلاقة الطيبة بينه وبين ربه في الدنيا، وأما الذين نسُوا اللّه وباعوا دينهم بدنياهم وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة وتجبروا على اللّه واستكبروا في أنفسهم عن الإيمان باللّه وعبادته فهؤلاء هم الذين قال فيهم اللّه تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢ ـ ٤٣]

وتكون الذكرى لأولئك الذين كفروا باللّه مؤلمة ألماً شديداً فتراهم يقولون كما قال اللّه تعالى حاكياً عنهم: ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٢٧]

والآية تعبر عن حالة هؤلاء تعبيراً يؤكد الندم والحسرة اللذين يكونان

في أعماقهم ولات ساعةَ مندم، فما هم فاعلون ولو افتدَوا بملء الأرض ذهباً فلن يحميهم ويعصمهم من غضب الله سبحانه، وهم حينما يرون بداية الحقيقة أمامهم، تصعقهم الآلام ويتمنون العودة إلى قبورهم ونومهم، ولا يفيقون أبداً، فإنهم يعلمون حق العلم ما ينتظرهم من العذاب والآلام والذل والمهانة لأن الله توعدهم بالعذاب المهين، وهو أشد أنواع العذاب إيلاماً، وأما العصاة وعصاة أمة محمد ﷺ فتختلف آلامهم وعذابهم النفسي في هذه اللحظة عن المشركين والكافرين، فتكون آلامهم منصبة في هيئة الندم العميق على ما فعلوا في حياتهم من ألوان المعاصي والفجور، ومنهم مَن يعتصره الألم اعتصاراً لعدم ثباته في الدنيا على طاعة ربه سبحانه وتكاسله عن أداء الكثير من حق الله وحق العباد.

قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۞ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

[سورة النازعات، الآيات: ٣٥ ـ ٤١]

والسرعة في الحشر تفوق التصور البشري، فجمع رفات عشرات المليارات من البشر من بواطن البحار والجبال والوديان والصحراء في لحظات أمر إلٰهي، فوق مستوى العقل البشري وهذا في علم الله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٥]

فعلم الحياة الدنيا الميسر البسيط من أجل معيشة البشر انتهى وذهب، وجاء علم الله الذي وعد عباده أنه سيريهم آياته ومعجزاته.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾.

[سورة النمل، الآية: ٩٣]

ألم يقل بعض البشر كما قال تعالى على لسانهم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾.

[سورة الواقعة، الآية: ٤٧]

هذه الآية الكريمة لسان حال الكافرين والفاسقين.

ثم أجابهم اللّه سبحانه ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩ ـ ٥٠]

فهذا علم أنكروه، وأنكروا قدرة اللّه فيه، والآن وقد انتهت أسباب الدنيا وجاءت عجائب الآخرة فسيرون من قدرة اللّه ما يرون، والندم واقع على من أنكروا وجحدوا قدرة اللّه، وقد رأوا قدرته من خلال كونه في حياتهم الدنيا ورأوا السماء وما فيها، والأرض وما عليها وكلها دلالات تشير إلى وجود اللّه وقدرته، فهل يعقل أن تبنى هذه السماء ومليارات المليارات من النجوم التي تسبح فيها بهذا النظام وهذه الدقة دون قدرة إلٰه خالق.

قال اللّه تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٩١]

وحينما استغربوا في دنياهم كيف يعودون مرة أخرى بعد أن يكونوا تراباً وعظاماً! أعطاهم اللّه ما هو أقوى وأشد.

قال اللّه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾.

[سورة القيامة، الآيتان: ٣ ـ ٤]

ومعنى الآية أن اللّه تعالى وبعد أن تكونوا تراباً وعظاماً قادر على أن يعيدكم مرة أخرى بذات البنان الذي كنتم عليه، أي بذات البصمات التي كنتم تميّزون بها عن بعضكم في الحياة الدنيا، وهي بحد ذاتها في الدنيا معجزة الخلق البشري، فلا تتساوى بصمات إنسان مع آخر منذ أن خلق اللّه آدم وحتى آخر مخلوق قبل يوم القيامة، وشكل البصمات على اليد تتراءى للإنسان أنها واحدة ولكن هي بالفعل رسومات إلٰهية مختلفة تميز أي إنسان عن إنسان آخر وحتى يوم القيامة.

قدرة اللّه سبحانه في بعثه للخلائق جميعاً

. . . كثيرة هي الآيات القرآنية الكريمة التي تحدث فيها اللّه سبحانه عن بعث العباد من قبورهم أو من أي مكان دفنوا فيه، ولو كان في أعماق باطن الأرض والبحار ورؤوس الجبال أو في الوديان السحيقة أو في طبقات الجو أو السماء، فالآية واضحة تبين قدرة اللّه سبحانه على جميع الخلائق والبعث والنشور.

يقول تعالى:

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٤٨]

فلا فوت ولا هرب لأحد، ولا يملك أحد لنفسه نجاة أو ملجأ، ولا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه وما كان ربك نسياً.

فكل ما في هذا الكون ملكه، وكل ما خلق مما علمناه وما لم نعلم ملكُه وهو تحت علمه وقدرته وإرادته. . . فأين نذهب. . فأي مكان نذهب إليه ملكه.

قال تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ٢٦]

وقال اللّه سبحانه على لسان الجن ما تقوله الجن بعد أن أدركوا أنهم لن يعجزوا اللّه سبحانه في أرضه ولن يعجزوه هرباً، على الرغم مما تملكه الجن والشياطين من قُوى خارقة وقدرة على الطيران، حتى إنهم

كانوا يصعدون إلى السماء الدنيا فيسّمعون إلى الملأ الأعلى.

يقول تعالى على لسان الجن:

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴾.

[سورة الجن، الآية: ١٢]

ولقد بين اللّه سبحانه لنا في الآيات من آخر سورة مريم بعد أن تحدث عن الكافرين الذين قالوا: إن اللّه اتخذ ولداً، أن هذا الادعاء الذي يدعيه أهل الشرك والكفر تكاد السموات تتفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، ثم أوضح اللّه سبحانه أنه لا إلٰه سواه وأن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً وفرداً لا ينسى أحداً منهم أبداً لأنه أحصاهم وعدهم عداً وما كان ربك نسياً.

يقول تعالى:

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾.

[سورة مريم، الآيات: ٨٨ ـ ٩٥]

اقرأ هذه الآيات العظيمة وأعد قراءتها مرات، تدركْ عظيم معانيها وكلماتها. . . وعظيم الأمر وهولَ القول فيمن قال اتخذ الرحمن ولداً أو كان للرحمن ولد. . . هذا الإلٰه العظيم لا ينبغي أن يتخذ ولداً ولا أن يكون له ولد، وليس في هذا الكون كله على عظيم اتساعه إلا حقيقة لا إلٰه إلا اللّه، عليها قامت السموات السبع والأرض ومنها كانت الجنة والنار، فلا حقيقة في كل هذا الكون إلا حقيقة لا إلٰه إلا اللّه. . وكل شيء مخلوق بقدرة اللّه سبحانه يعلم بالفطرة حقيقة وحدانيته وحقيقة لا إلٰه إلا اللّه حتى السموات والأرض والجبال ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾.

ثم يبين اللّه سبحانه أن كل من في السموات والأرض من إنس وجن ومن ملك عظيم مقرب، حتى لو كان جبريل وميكال وإسرافيل وملك الموت

وحملة العرش إلا سيأتي الرحمن فرداً يوم القيامة لا حول له ولا قوة له إلا بحول اللّه وقوته، كل يأتيه داخراً راجياً عفوه ورحمته ومهما عظمت هيئته وخِلقته ولو بلغ حجمه كما بين السماء والأرض فإنه يأتي يوم القيامة مطأطأ الرأس لا يرجو إلا رحمة اللّه وكرمه وعفوه. . .

يقول رسول اللّه ﷺ عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن اللّه تعالى أذن لي أن أتحدث عن ملك من ملائكة اللّه تعالى من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمِائة عام**»[١].

هذا الملك على عظيم خلقه بهذه الصورة التي تفوق حد تخيّلنا وليس تفكيرنا. . . يوم القيامة لا يرجو إلا رحمة اللّه سبحانه. . . فماذا يفعل بنفسه من أعماه الباطل عن الحق ومات على كفره وشركه وضلاله واعتقاده بأن للّه ولداً أو أن اللّه اتخذ لنفسه شريكاً.

. . . ثم لنتابع الآيات القرآنية ففيها وعيد اللّه للكافرين بأنهم سيأتونه داخرين صاغرين، وفيها اطمئنان للمؤمنين أن اللّه سبحانه لن يترهم أعمالهم ولن ينسى عند البعث والنشور والخروج وتشقق الأرض أحداً من المؤمنين.

﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾.

[سورة مريم، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥]

هكذا يبعث الناس لا يُنسى منهم أحد، ويكون البعث بمنتهى الدقة والعلم الإلٰهي لا عشوائية ولا فوضى ولا استهتار ولا نسيان، فهذه صفات آدمية وليست صفاتٍ إلٰهيةً، فاللّه سبحانه الذي خلق السموات السبع بكل هذه الدقة وهذا النظام، وخلق الأرض وخلق أقواتها بعلم ونظام يفوق كل تخيلاتنا وعلمنا ومهما أوتينا من العلم. . . فالبعث سيكون منظماً وأحداثه تباعاً دقيقة ومفصلة مرتبة ترتيباً إلٰهياً عجيباً.

فلننظر في مشاهد وآيات البعث والنشور في القرآن الكريم وفي هذه

(١) أخرجه أبو داود حديث صحيح.

اللحظات الحاسمة لحظات البعث والنشور والخروج من القبور.. وكيف يكون الموقف يومئذ، وما شعور البشرية بعد أن تستفيق من موتتها وغفلتها وتشاهد الحقائق التي تبدأ ولا نهاية لها، والتي بذل الكفرة كل جهد جهيد في دنياهم لنكرانها وبطلانها وتكذيبها، وذلك بعد فترة جدل البعث والنشور بين الأنبياء وأقوامهم في التاريخ الإنساني.

قدرة الله في بعث الخلائق كبعث نفس واحدة

يقول تعالى:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

[سورة لقمان، الآية: ٢٨]

آية عظيمة يجب أن نتوقف عندها ونتأملها وننظر فيها إلى عظمة الله سبحانه فهذه قضية مهمة في عالم البشر.. فالله سبحانه يعلم ذاته وقدرته بعلمه وهو يعلم كيف يحيي الخلائق جميعاً كإحيائه لنفس واحدة، فهو الخالق وهو أعلم بما خلق.... ولكن الله سبحانه يتوجه في هذه الآية الكريمة للبشر مؤمنهم وكافرهم مطيعهم وعاصيهم المؤمن منهم بالبعث والنشور والمنكر للبعث والنشور وذلك لتطمئن قلوب الجميع فيزداد إيمان المؤمن.. وعسى بهذه الآية تطمئن قلوب المنكرين إذا قرؤوها وتهديهم.. والقرآن الكريم كله آيات هداية وتنوير وتبصير، تماماً كخطابه الموجه للناس الذين في قلوبهم ريب من البعث علهم يعودون كما في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾.

[سورة الحج، الآية: ٤]

يقول المنكرون للبعث وإعادة الأموات إلى الحياة مرة أخرى بعد أن تحولت أجساد الموتى إلى عظام وتحولت العظام إلى تراب.. يقولون: كيف يعيد الله آلاف المليارات من الخلائق وقد تحولوا إلى تراب بعد طول زمان؟ يهولهم الأمر ويستعجبون منه ولا يصدقونه!!

وليسأل أحدنا نفسه سؤالاً هيناً ليناً فيقول: هل يعجز هذا الإلٰه العظيم خالق السموات والأرض والناس أجمعين أن يحيي ميتاً واحداً وأن يعيد نفساً واحدة ويبعثها؟ . . فالجواب حتماً أن اللّه لا يعجزه أن يحيي نفساً واحدة من كل هذه الخلائق. . فتقول: إن الذي يعلم سر إرجاع نفس واحدة يعلم سر إرجاع الخلق جميعاً.

. . . . فلو أن الطب عرف كيف يشفي مريضاً واحداً بمرض السرطان بدواء جديد صنعوه وجربوه على هذا المريض، فإذا شفي منه فيعني هذا شفاء جميع مرضى السرطان، لأن سر المرض اكتشف باكتشاف دوائه وكذلك المذياع فإنه في يوم لم يكن موجوداً، ولكن لما تم اختراع وصناعة مذياع واحد وعُرف سره، نسخت منه ملايين النسخ فيما بعد، وكذلك أي آلة لم تكن معروفة فعرفت وصنعت منها الآلة الأولى، تكرر منها ملايين النسخ فيما بعد.

فالإنسان لا يستطيع أن يحيي الميت لأنه لا يملك هذا العلم، وعقله المخلوق عندما خلقه اللّه سبحانه، أوقفه عن علم إحياء الميت، ومهما تطور العقل وارتقى فلن يصل إلى هذا العلم. . ولكن اللّه يعلم كيف يحيي الميت. . وكما أن صناعة المذياع الأول والهوائي الأول والهاتف الأول يعني صناعة ملايين النسخ، كذلك فإن علم اللّه بإحياء ميت واحد يعني إحياء الملايين، وخلق الإنسان الأول آدم عليه السلام يعني خلق الملايين منه.

. . . . فالأمر يسير على اللّه تعالى وأيسر مما نتخيل، فإذا ما اكتمل نبات الأجساد وكما قدَّمنا من قبل بالمطر الذي ينزله اللّه سبحانه بين النفختين، يرسل اللّه سبحانه عند النفخة الثانية (نفخة البعث) الأرواح التي كانت في الأصل في الأجساد قبل موتها. . أي يعيد اللّه سبحانه تلك الأرواح إلى أجسادها دون أن تخطئ روح واحدة في دخول جسدها، لأن لها شيفرة ولغزاً وتطابقاً وحيداً فقط مع جسدها لا يمكن أن تخطئ، فلا تدخل في جسد آخر لأنه يرفضها وهي ترفضه. . . . تنظيم إلٰهي فوق قدراتنا العقلية وتخيلاتنا الفكرية.

.... لذلك قال تعالى وفي أكثر من آية ذكرناها أن هذا الحشر عليه يسير: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

[سورة ق، الآية: ٤٤]

يسير لأنه يعلم سر إعادتهم جميعاً كإعادة نفس واحدة وما ذلك على الله بعزيز.

حال الناس
عند خروجهم من القبور

وصف تلك الحالة ليس بالأمر الهين، ووضع الناس يومئذ عسير يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

[سورة المدثر، الآيتان: ٨ ـ ٩]

وقلت فيما سبق أن اللحظات الأولى للبعث والخروج من القبور صعبة على الناس جميعاً، ولكن سرعان ما يطمئن المؤمنون الصالحون العاملون بما يرضي اللّه سبحانه.. ففي كل مرحلة من مراحل يوم القيامة يرسل اللّه بقدرته ملائكة تطمئن عباده المؤمنين لئلا يصابوا بالخوف والهلع والرعب. وهذا من رحمة اللّه وعدله فمن خافه في الدنيا أمّنه في الآخرة يقول تعالى:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣]

.... فاللّه سبحانه حدد عُسر هذا اليوم على الكافرين فهو غير يسير عليهم، وكذلك على العصاة والطغاة والظلمة وإن كانوا من أمة محمد ﷺ.

فإنهم يخرجون من الأجداث سراعاً أذلّاء خاشعة أبصارهم يصرخون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ـ أي من قبورنا.. هذا ما وعدكم الرحمن به وكذبتم به واستكبرتم على اللّه فقد جاءكم ما كنتم تستعجلون به وهذا أول الذل والمهانة فقد بدأ عذابكم وهذه أول ساعة منه.

.... نعم يخرج الناس من قبورهم مؤمنهم وكافرهم حفاة عراة غرلاً، على أرض قد مدّت مد الأديم (الجلد) فلا أثر ولا علم ولا جبل ولا تلّة ولا مرتفع ولو قدرَ قِيد أنملة، يستطيعون أن يصعدوا عليه ليروا ما حولهم أو ما أمامهم وما خلفهم.. ليس بأيديهم شيء ولا يملكون أي شيء يستطيعون أن

يفعلوا به أي شيء، لقد تبدل معالم كل شيء وليس من شيء يعرفونه، لقد انتهى امتحانكم أيها الناس في الدنيا وتوقف عن العطاء كل ما أمر اللّٰه سبحانه في الدنيا أن يعطيكم ويستجيب لكم.. إنهم يقفون على أرض ملساء صلبة لا تتفتت ولا تستجيب لهم ولا يملكون إلا أجسامهم العارية حتى من قطعة لباس.

- عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**إنكم ملاقو اللّٰه حفاة عراة غرلاً**»(١).

فلا معول يحفِرون به الأرض ولا عصا يتكئون عليها ولا صخرة يرتفعون عليها ولا ملك يُنصب له المقام والعرش ولا أمير يأمر ولا خفير يستجيب ولا سيد يوسع له في المقام ولا عبد يضرب من سيده ويهان.. كل ليس له أكثر من موضع قدميه، فلا تجد إلا أجساداً عارية تكاد تتلاصق ورؤوساً تزدحم، ليس لهم من الأمر شيء ولا لأحد من خلق اللّٰه لا من ملك مقرب ولا رسول ولا نبي منتخب، فالأمر يومئذ للّٰه وحده.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

[سورة الانفطار، الآية: ١٩]

هذه حال الناس يوم يدعوهم اللّٰه سبحانه فيستجيبون بحمده، لا يستطيع أحد أن يتخلف عن هذه الدعوة وكل أتوه صاغرين.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٥٢]

.... فإذا ما انشقت القبور وخرج الناس سراعاً استجابة لأمر اللّٰه فإن أول من ينشق عنه القبر رسول اللّٰه ﷺ.

- عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع.. وأول مشفع**»(٢).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال:

---

(١) رواه البخاري كتاب الجنة ونعيمها رقم الحديث ٢٨٦٠.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث ٢٢٧٨.

«استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنى اللَّه عز وجل»(١).

.. فإذا ما انشق القبر عن رسول اللَّه ﷺ [يسأل جبريل عليه السلام ويكون عنده في هذه الساعة العظيمة ـ ماذا فعل اللَّه بأمتي يا جبريل؟ فيقول له جبريل: أنت أول من تنشق عنه الأرض] ثم تبدأ الأرض تتشقق بسرعة كبيرة عن الصالحين الأول فالأول.

ـ عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم آتي أهل البقيع فيحشرون ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين»**(٢).

وإكراماً من اللَّه سبحانه لهذه الأمة المحمدية فإن كل إنسان يبعث على ما مات عليه، فإن مات حاجاً بعث وهو يقول: (لبيك اللّهم لبيك)، وإن مات شهيداً فإنه يبعث يوم القيامة جرحه يثعب، اللون لون الدم والريح ريح المسك.... ومن هنا يستحب أن يلقن الميت لا إله إلا اللَّه حتى يبعث عليها يوم القيامة فيخرج من قبره وهو يقول: لا إله إلا اللَّه.. لذلك كان في الحديث الشريف:

ـ عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة»**.

رواه أبو داود برقم ٣١١٦.

ـ عن عبد اللَّه بن عباس قال: إن رجلاً كان مع النبي ﷺ فوقصته ناقته وهو محرم فمات، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في**

---

(١) جامع الأصول (٨/ ٥١٣) رقم الحديث ٦٣٠٨.

(٢) رواه الترمذي في سننه وقال: حديث حسن صحيح.

ثوبيه ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»(١).

ما معنى قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾؟

[سورة النازعات، الآية: ٤٦]

الذين تقوم عليهم الساعة هم جزء يسير من البشر، يُشهدهم اللّه سبحانه وتعالى لشديد كفرهم ومعاصيهم وضلالهم انفجار السموات وتشققها وانكدار النجوم وكذلك زَلزلة الأرض وتسجير البحار وانفجارها... وفي هذه المشاهد من الرعب والخوف والهلع الذي يصيب هؤلاء الذين تقوم عليهم الساعة ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه، جزاء وفاقاً لما اقترفته أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأجسادهم من الكفر والمعاصي، حتى إن رسول اللّه ﷺ وصفهم كما تقدم من أحاديث بحثالة البشر التي تشبه حثالة الشعير، وكذلك وصفهم بشرار خلق اللّه سبحانه لا يقرون معروفاً ولا ينكرون منكراً يعبدون الأوثان وهم من أشد الناس كفراً وشركاً ومعصية.

... ثم يميتهم اللّه سبحانه من جراء نفخة الصعق وهي النفخة الأولى التي تميت كل خلق اللّه في السموات والأرض إلا من يشاء اللّه، وكل ذلك تقدم الحديث عنه.

ثم يكون الزمن ما بين النفختين نفخة الصعق ونفخة البعث أربعين يوماً أو شهراً أو سنة كما في الحديث، ثم يبعث اللّه الخلق جميعاً بنفخة البعث وهي النفخة الثانية... نعم يبعثهم جميعاً الكافرين والمشركين والمؤمنين والطائعين والعاصين.. جميعهم يخرجون من أجداثهم سراعاً.. وقد وصف اللّه سبحانه هذا الحشر بأنه يسير عليه وهين وأهون من خلق الناس.

يقول تعالى:

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾.

[سورة ق، الآية: ٤٤]

ويبدأ البشر بالخروج من القبور ومجاهل الأرض فيبهتون بما يرون، ويُفاجؤون بما حولهم، إذ الأرض غير الأرض والحال غير الحال، وما

---

(١) رواه مسلم ـ مختصر مسلم ـ للمنذري.

حولهم لا علاقة له بما كانوا عليه في حياتهم الدنيا، وما كان قولهم إلا أن قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

[سورة يس، الآية: ٥٢]

إنها الطامة الكبرى وبداية عذاب لا نهاية له إلا من رحم اللَّه من المؤمنين الصالحين... في هذه اللحظات الحاسمة تتضاءل الحياة الدنيا التي عاشها الكافرون والمشركون والضالون والعصاة.. كل النعيم الذي عاشوا فيه صغُر وتضاءل حتى أصبح لا يساوي أكثر من ساعة من الزمن.... حيث في ساعات الألم والفزع والخوف لم يعد للنعيم إلا ذكريات قصيرة الزمن، ولو كانوا عُمِّروا ما عمروا في الحياة الدنيا الفانية.

يقول تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾.

[سورة النازعات، الآيات: ٤٢ ـ ٤٦]

فاللَّه سبحانه أعلم بخلقه وأعلم بما خلق وأعلم بنفوسهم جميعاً، وأعلم بما سيكون عليه حالهم وشعورهم عند قيام الساعة وعند البعث والنشور وعند الوقوف في أرض المحشر وعند العرض على اللَّه سبحانه.

ومن علم اللَّه سبحانه صور لنا في آيات قرآنية كريمة، مما سيأتي الحديث عنه عند الحديث عن مواقف يوم القيامة.. ما سيكون عليه الناس يوم القيامة وكيف يحدثون بعضهم عند المصائب والبلايا والعذاب في أرض المحشر، وما الآية القرآنية الكريمة إلا أحد هذه التصورات البشرية التي يكون حالهم عليها عند البعث والنشور.. فهي تصوير حي من عليم خبير.... فمن دقة علم اللَّه سبحانه بالإنسان أنه يعلم حتى ما توسوس به نفسه:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

[سورة ق، الآية: ١٦]

.. وفي آيات أخرى يصور اللَّه سبحانه لنا ما يقوله المجرمون

والمشركون والكافرون عند قيام الساعة وعند البعث والنشور.

يقول تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾.

[سورة الروم، الآية: ٥٥]

وأمّا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ﴾.

ليست هي فقط للزمن الذي عاشوا فيه في حياتهم الدنيا، بل مدة لبثهم في حياتهم الدنيا مع مدة لبثهم في برزخهم (قبورهم) حتى لو كانت عشرة آلاف سنة... فكل هذا الزمن الذي عاشوا فيه، وما مضى في برزخهم عند قيامهم من قبورهم ومشاهدتهم وعد اللّه الحق.. كأن لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها في آية كريمة.. وفي آية لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

... وكي ندرك معنى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

نقول: مثلاً رجل عاش خمسين سنة أو ستين سنة في نعيم منقطع النظير توفرت له في حياته كل وسائل المُتعة والرفاهية... وفي يوم كان في رحلة بالطائرة فحدث فيها عطل مفاجئ، هوت على أثره فوق صحراءَ قاحلةٍ، مات الجميع ولم يبق إلا هو... وحيث سقط لم يكن هناك إلا الصحراء برمالها الصفراء وأشعة الشمس التي تلفح الوجوه والرؤوس بحرارتها، حيث لا ظلَّ يستظل به ولا ماء ولا طعام ولا مأوى ولا أمل في نجاة، وبعد أن تتقطع أمعاؤه جوعاً ويحترق جوفه وحلقه وفمه عطشاً... وهو في هذه الحالة المؤلمة الفظيعة كم يتمثل له يومئذ حياة الترف والنعيم التي عاشها وعلى طول ستين عاماً؟؟

... نعم لا تمثل له ولا النعيم الذي كان عليه إلا وهماً وسراباً وخيالاً لا يتجاوز ساعة من نهار.

... فإذا كانت هذه حالَهُ وهو في الحياة الدنيا... فكيف تكون حاله إذا جاءت الطامة الكبرى وجاءه العذاب وجاءه الموت من كل مكان وما هو بميت، لا شفيع ولا نصير ولا أمل من نجاة، وهو يعلم عندئذ حق العلم أن

ما هو آت أشد بمرات كثيرة لما هو عليه، عند البعث والنشور وعند قيام الساعة.

.. وكذلك يفعل الكافرون والمجرمون عندما يجمعهم اللّه سبحانه في أرض المحشر يوم القيامة ـ يتساءلون ـ ويقسمون ـ ويحسون ويدركون ويقولون فيما بينهم: إنهم ما لبثوا في الأرض إلا ساعة من نهار.. وهذا سيأتي بيانه عند الحديث عن يوم القيامة وأهواله وأحداثه الجسام العظام.....

هل تتغير الأجساد عند بعثها وخروجها من القبور وتنشأ نشأة أخرى؟

قلنا في فِقرات سابقة: إن كل شيء يفنى من ابن آدم بعد موته إلا (عجب الذنب) الذي تتركب منه الخلائق بعد نفخة الصعق الأولى. وللتذكير بحديث رسول اللَّه ﷺ:

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون قالوا لأبي هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أبيت (أي لا أجزم بذلك) قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم ينزل اللَّه من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(١).

ففي عَجْبِ الذَّنَبِ صفات الإنسان (فلان) مضغوطة تماماً كما نجمع اليوم آلاف المعلومات في ميكروفيلم لا يتجاوز سنتيمترات أو نجمع مئات الكتب على (سي دي)، وعندما تريد أن تقرأ عن أي معلومة أو كتاب لتكشف كل ما فيه تضع السي دي وخلال ثوان تكون المعلومات أمامك على الشاشة وهذا صناعة الإنسان!!. فكيف تكون صنعة اللَّه وإبداعه.. هذا العجب من الذنب مبرمج ومشفر كل إنسان بداخله (كأنه سِيدي حجمه ربع سم) فيه المعلومات الكاملة عن هذا الإنسان.. وكل واحد له عجب ذنب لا يفنى يبقى مع التراب حتى يرسل اللَّه سبحانه الأرواح إلى تلك الأجساد فتقوم واقفة بإذن اللَّه تعالى... كل هذا قلناه وقدمنا عنه.. ولكن سقناه من أجل أن نقول... إن معلومات الإنسان المشفرة بداخل عجب الذنب كاملة لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

نقصان فيها وكذلك لا مرض ولا فيروس فيها. . فإذا ما نبت الإنسان من ماء الطل ينبت كاملاً. . فمن مات وقد نقصت ساقه تعود إليه ساقه عند البعث. ومن فقد عقله ـ كذلك ـ ومن فقد يده كذلك ومن أجريت له عملية كلية أو نزع أي عضو من الجسد فإنه يعود إليه، ففي لحظة البعث والخروج من القبور والأجداث ومجاهل الأرض نخرج سليمين معافين لا ينقصنا من أجسادنا شيء أبداً ولكن يبقى السؤال؟

. . . في حياتنا الدنيا لا نستطيع أن نرى الملائكة ولا الجن ولا كثيراً مما أخفي عنا بأمر اللّه سبحانه، ومن خلقنا الفيزيولوجي، فأجسادنا في الدنيا لا تستطيع عجزاً وقصوراً في تركيبها ونسجها وقدرتها أن ترى بعض الغيب والملائكة والجن.

. . . فالجن بخلقهم الفيزيولوجي يستطيعون أن يروا الناس في الحياة الدنيا والإنسان لا يستطيع أن يراهم وهذا ما ورد ذكره في القرآن الكريم:

يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٢٧]

. . . وعند البعث والنشور تتغير القوانين. . فقوانين الدنيا زالت وبدأت قوانين ونواميس وشؤون الآخرة. . . وأول هذه القوانين والنواميس تغيراً هي فيزيولوجية الإنسان. . . فالذي لم يكن يراه كشف عنه الغطاء فصار حديداً يرى يومئذ جميع خلق اللّه تعالى والتي كانت محجوبة عنه في الدنيا.

وقد بين اللّه سبحانه لنا هذا في كتابه الكريم، وأن أول التغير يحصل في قدرة الإبصار، فاللّه بيده الخلق وبيده العلم، ففي نسيج عجب الذنب الذي تنبت منه الأجساد تكون فيزيولوجية العين بكامل قوتها وقدراتها التي تستطيع أن ترى يومئذ ما حولها من الملائكة والجن. . أما في الدنيا عندما كنا لا نرى فإن اللّه سبحانه قد نزع من العين شيئاً وهو أعلم بخلقه حتى يحجب عنها رؤية بعض الغيب ومنه رؤية الملائكة والجن.

يقول تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

[سورة ق، الآيات: ١٩ ـ ٢٣]

ما أعظم هذه الآيات الكريمة! وما أجملها! وما أروعها.. إنها تحكي وبإيجاز رائع قصة الموت والنفخ في الصور والحشر الذي يساق إليه الناس عن طريق السائق والشهيد، ويتحدث اللّه سبحانه عن غفلة الناس عن هذا اليوم وعن هذه الساعة العصيبة العسيرة على الضالين، ثم يتحدث اللّه سبحانه عن تغير معالم الجسد الإنساني في كشف الغطاء عن هذا البصر، حتى يشاهد يومئذ ما أخفاه اللّه عنه في الدنيا لضرورة الامتحان وللابتلاء، وفي رؤيتهم يومئذ حَمْد وشكر للّه من المؤمنين، وعذاب وألم للكافرين، لأنهم يصطدمون ويُفاجؤون بالحقائق التي أنكروها.

يقول تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾.

[سورة النحل، الآية: ٩٣]

... إذاً أول التغيير تغيير في فيزيولوجية البصر، إذ يتحول بقدرة اللّه فتكون له قوة كبيرة جداً بحيث يرى فيها كل شيء أخفاه اللّه عنا.... هذا هو التغيير الجسدي الحاصل عند قيام الناس من قبورهم لرب العالمين.

وللسائل أن يسأل.. إن اللّه سبحانه يقول في سورة الواقعة:

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيات: ٦٠ ـ ٦٢]

فالآيات تشير إلى نشأة أخرى وخلق آخر للإنسان وليس مقتصراً على البصر فقط؟؟؟

نقول وباللّه العون.. إن اللّه سبحانه لما تحدث في سورة ق كما أوردت من آيات ـ تحدث عن الموت ثم النفخ في الصور ثم الحشر ثم

كشف الغطاء ثم البصر الحديد. . فهذا التغيير الأول يكون عند الخروج من الأجداث (القبور) ويبقى هذا التغيير طوال يوم القيامة. . ولكن قوله تعالى: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهو حاصل والعلم عند اللّه عند حشر الناس في أرض المحشر (أرض الميعاد)، التي يجمع اللّه فيها الأولين والآخِرين إنساً وجناً وطيراً ووحشاً. . . ثم يجمع ملائكته عليهم السلام. عند ذلك يتغير الجسد وتتغير فيزيولوجية خلقه وتتم النشأة الأخرى لتتناسب مع يوم القيامة كله ومع الجنة ومع النار، وهذا سيتم الحديث عنه في حينه. . . . المهم هنا أن التغير الجسدي بعد البعث يتم في البصر فقط.

واللّه أعلم كما دلت عليه الآيات الكريمة.

هل يبعث مع الإنسان الجن والوحش عند نفخة البعث؟

... الذي تشير إليه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة أنهم ينشرون كما ينشر الإنسان، فهم ممن تشملهم آية النفخ في الصور (الإماتة) والنفخة الأخرى (الإحياء).

يقول تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

[سورة الزمر، الآية: ٦٨]

فهذه الآية الكريمة تشمل كل الخلائق في الأرض وفي السموات وليست هي مخصوصة بالإنسان وحده.. وهذا يعني أنها تشمل الجن وتشمل الوحش والطير.

ومما يؤكد حشر الوحوش جميعاً الآية الكريمة من سورة التكوير وهي في سياق الحديث عما يحدث عند قيام الساعة من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار وحشر الوحوش وتسجير البحار.

يقول تعالى:

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

[سورة التكوير، الآيات: ١ ـ ٧]

فقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أتت في سياق آيات لحظة إقامة الساعة، وهذا مما يؤكد تأكيداً مطلقاً على حشرها ونشرها وبعثها مع الإنسان.

وكذلك مما يؤكد حشرها قوله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٣٨]

كل خلق الله سبحانه، خلقهم أمماً لها كيانها ووجودها وطريقتها في الحياة، خلقها الله سبحانه بمنتهى الدقة والقدرة والعلم، صغرت كالنمل أو كبرت كالفيلة ضعفت كالفراش أو قويت كالنسور.... وكلها تسبح بحمد ربها دون استثناء لأمة منها أبداً.

يقول تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٤٤]

وكذلك دلت أحاديث رسول الله ﷺ على حشر الوحوش (الحيوانات) كلها أليفها ووحشها وطيرها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد ـ أي يقتص ـ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجمّاء من القرناء وحتى للذرة من الذرة**»(٢).

وأما بعث الجن ونشرهم وحشرهم فهذا أيضاً مؤكد، ودليله الصحيح من الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد حشر الجن مع الإنس والوحش.

يقول تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

[سورة مريم، الآية: ٦٨]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ورواته رواة الصحيح كما في الترغيب.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ١٢٨]

وهذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على حشر الجن وحسابهم كما يحاسب الإنس، ويقفون بين يدي اللّه تعالى كما يقف الإنس بل اللّه يجمعهم يوم القيامة مع بعضهم ويسألهم عما جرى بينهم في الدنيا من التضليل والإغواء ومن الاستمتاع والانتفاع على الوجه المحرم.

وأما استمتاع الإنس بالجن فهو ما كانوا يلقون إليهم من استراق السمع والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها.. واستمتاع الجن بالإنس هو طاعة الإنس للجن في المعاصي والكفر والضلالة والغواية والفساد.

الفصل الثالث

آيات اللّه في تبديل السماوات والأرض

- بيان قدرة اللّه وعظيم كونه وسماواته من منظور علم الفلك المعاصر .
- أحوال السماء الدنيا والسموات السبع عند قيام الساعة .
- آيات انشقاق السموات وانفطارها عند قيام الساعة .
- بيان وتفسير آيات انشقاق السماء وانفطارها عند قيام الساعة .
- كيف تبدل الأرض غير الأرض والسماوات يوم القيامة؟
- تبديل السماوات والأرض كما جاء في القرآن الكريم .
- خاتمة الموسوعة الكونية الكبرى .

بيان قدرة اللَّه وعظيم كونه وسماواته من منظور علم الفلك المعاصر

قبل أن نتحدث عن حال السموات وانفطارها وتشققها ومورها وكشطها وطمسها وطويها جميعاً في يمين الرحمن عند قيام الساعة ومن ثم بقدرة اللَّه سبحانه تبدل الأرض غير الأرض والسموات لا بد أن تعلم شيئاً عن السموات وما فيها من نجوم وكواكب، وتعلم شيئاً عن الأبعاد والحجوم، وذلك حتى تدرك معنى خلق السموات والأرض وترى عظمة الخلق والخالق.

خلق السموات والأرض ونشأة الكون وبدايته أمر عظيم شغل الناس في القرون الماضية ولم يصلوا إلى شيء.

وشغل علماء الأرض في هذا القرن ووضعت له الدول كل ما تملك من إمكانيات، ولم تبخل على هذا العلم (علم الفلك) بشيء، وما تتكلفه الدول في صناعة سفينة فضائية واحدة يكفي لإعمار حيٍّ بأكمله، ومع ذلك فهم لا يبخلون على هذا العلم بشيء أبداً لما له من الأهمية العظمى.

فقد حيرتهم السماء منذ مئات السنين، ولم تستطع البشرية أن تضع قانوناً ونظرية ثابتة في نشأة السماء وبدايتها، كل ذلك ما يزال رغم مئات النظريات محضَ آراء قابلة للتغيير والتبديل، وهذا هو ما يحدث تماماً في هذه الأيام.

فلوأن السماء لا تحوي سوى الشمس وكواكبها التسعة (الزُّهرة والمَرِّيخ وعُطارد والأرض والمشتري ونبتون وبلوتون وزُحَل وأورانوس) لعلموها واكتشفوها منذ زمن بعيد فأراحوا واستراحوا، ولكن الذي في السماء المنظورة للعين المجردة آلاف النجوم ولا نتكلم عن غير المنظور، وهو

الجانب الأكبر في السماء، والتي يحتوي مليارات المجرات والتي تحوي في داخلها مليارات المجموعات الشمسية المشابهة لمجموعتنا الشمسية هذه.

فالآية القرآنية الكريمة تتحدث عن خلق السموات والأرض، والسموات كلمة واحدة ولكن تحوي في داخلها قدرة لا تستطيع العقول وبما تملك من مواهب وعلم أن تدرك كنهها.

فما معنى السموات؟ هي جمع ومفردها سماء والسماء الأولى هي السماء الدنيا التي تقع فيها مجموعتنا الشمسية، والأرض التي نعيش عليها تابعة لهذه المجموعة الشمسية، وما هذه المجموعة إلا واحدة من آلاف المليارات من المجموعات الشمسية التي تسبح في السماء الدنيا.

أيوجد في السماء الثانية والثالثة حتى السابعة ما هو موجود في السماء الأولى من نجوم وكواكب وأقمار ومذنبات؟ أم في كل سماء علم آخر وحياة أخرى وأمر آخر وقدرة إلٰهية؟

وهل السماء الأولى (السماء الدنيا) هي هذه النجوم والكواكب والمجرات فقط؟ أم ما نراه وما اكتشفه العلم هو مجرد بداية السماء الأولى فقط؟

وهل السماء الدنيا وهذا الاتساع الذي لا نهاية له حسب علومنا، بحجم السماء الثانية؟ أم هي بالنسبة إليها لا تشكل إلا كحصاة في بحر؟ وهل السماء الثانية هي بحجم السماء الثالثة أم الأخرى لا تشكل بالنسبة للسماء الثالثة إلا كحبة رمل في جبل؟

فإذا كان بعض العلماء في علم الفلك يقولون: «إن ما اكتشفناه وعلمناه حتى هذه الساعة عن السماء الأولى لا يتعدى أن يكون فلزات للسماء الأولى». وعالم آخر يقول: «على الرغم من كل هذه الاكتشافات الهائلة في علم الفلك واكتشاف مليارات المجرات ودروب المجرات والعناقيد المجرية فإننا لا نزال في بداية الطريق!»[(١)].

فالعين المجردة هيأها اللّه لترى ولمسافة مليوني سنة ضوئية، فكل

(١) «مجلة العلوم» الصادرة عن أكاديمية البحث العلمي ـ القاهرة.

النجوم التي نراها في السماء بواسطة أعيننا المجردة لا تبعد عن مركز الأرض أكثر من مليوني سنة ضوئية [١].

وآخر ما توصل إليه العلم منذ سنوات صناعة تلسكوب استطاع به العلماء أن يروا في السماء لمسافة عشرات الملايين من السنوات الضوئية.

ومع هذا فإن مِساحاتٍ هائلةً من السماء لم يجد العلماء أي أثر لخلق مجرات ونجوم، وظنوا أنها منطقة خالية، وأعلنوا ذلك لأن أعلى وأدق وأكبر مراكزهم العلمية لم يعطهم أي إشارات عن وجود أي شيء آخر، وهنا ظن معظمهم أنهم وصلوا إلى نهاية المطاف. إذاً لا بد لنا أن نبحث عن كون آخر فها نحن قد وصلنا إلى نهاية السماء تماماً ولكنهم رجعوا عن هذا الظن مرة أخرى واعترفوا بشيء آخر، وذلك حينما اخترعت أمريكا التلسكوب الهائل العظيم وأسمته «هابل» وجعلته في الفضاء عن طريق إحدى السفن الفضائية وإذا به يرسل لهم صوراً مؤكدة عن هذه المنطقة المجهولة في السماء والتي ظنوا أنها خالية من أي أثر لخلق أو حياة أو نجوم، فيها من المجرات والنجوم الهائلة التي لا يعلم عددها إلا اللَّه أقربها إلينا أي إلى الأرض سبعمائة مليون سنة ضوئية [٢].

أو ما زلنا في بداية الطريق وبداية السماء الأولى أم قد وصلنا إلى نهاية الطريق ونهاية السماء الأولى؟

وبعد خمسين عاماً من الآن ربما تصل البشرية إلى تلسكوب يكشف أبعاداً هائلة أخرى، ويكشف مجرات جديدة ربما منها نجم واحد يسع كل مجموعتنا الشمسية التي اكتشفها العلم الحديث ومن يدري؟!

فالعلم واكتشافاته سلسلة لا متناهية يعيش مع كون غير متناه، وكلما اكتشفوا جديداً كشف هذا الجديد عن جديد آخر.

قديماً ظن الفلاسفة أن هذه الأرض هي محور الكون، قالوا هذا بما

---

(١) «الكون ذلك المجهول» جلال عبد الفتاح ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) هذا الاكتشاف العلمي أعلنت عنه جميع وكالات الأنباء العالمية والعربية على شاشات التلفاز سنة ١٩٩٥ وفي المجلات المختصة ووسائل الإعلام.

كانوا يملكون من علم قاصر، وإذا بهذه الأرض بعد مرور ألف سنة أخرى لا تشكل هي والمجموعة الشمسية التابعة لها والمجرة التي تتبع لها المجموعة الشمسية إلا ورقة واحدة من شجرة واحدة في غابة واحدة.

. . . أنشتاين قال فيما مضى: وعلم الكون لا يزال في بدايته، إننا لو قسمنا عدد المجرات التي في السماء على عدد سكان الأرض لكان نصيب كل فرد منا سبعاً وثلاثين مجرة، ولو قسمنا عدد المجرات المكتشفة في هذا العام على عدد سكان الأرض لكان نصيب كل فرد منا ألف مجرة وليس سبعاً وثلاثين مجرة.

وحتى نزداد معرفة بالسماء ونعرف ما معنى كلمة السماء حجماً وبعداً فلنقرأ من سورة الواقعة هذه الآية:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

فالملاحظ في هاتين الآيتين أن اللّه سبحانه أقسم بمواقع النجوم ولم يقسم بالنجوم ذاتها، وأما لماذا؟

وذلك لأنّ النجوم أو الكواكب أو الأقمار تمثل حجوماً هائلة في أماكنها، ولكن عظمة بناء السماء لا تكمن في وجود هذه النجوم والكواكب فحسب، بل في هذه المسافات الشاسعة التي تفصل هذه النجوم والكواكب بعضها عن بعض، وبعد أن نقرأ عن هذه المسافات التي تفصل ما بين النجوم بعضها عن بعض ندرك معنى الآية القرآنية وندرك ما معنى المواقع التي قصدها اللّه سبحانه في قوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ وعلى سبيل المثال نذكر بعضاً من هذه الأبعاد الشاسعة بين النجوم بعضها عن بعض وبين الكواكب بعضها عن بعض(١).

١ ـ كواكب المجموعة الشمسية التسعة وهي عبارة عن عائلة واحدة يسكن بعضها قريباً من بعض تحتضنهم أمهم الشمس، والبعد بينها شاسع.

(١) ذهب بعض المفسرين إلى اعتبار النجوم في آية ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم**﴾ أنها نجوم القرآن، وذهب بعضهم إلى اعتبار النجوم المذكورة في الآية أنها نجوم السماء ومواقعها أي مطالعها ومشارقها، وأيد هذا التفسير ابن جرير الطبري.

نذكر من ذلك على سبيل المثال:

الأرض تبعد عن الشمس ١٤٩ مليون ك م.

المريخ يبعد عن الشمس ٢٢٧ مليون ك م.

المشتري يبعد عن الشمس ٧٧٧ مليون ك م.

بلوتون يبعد عن الشمس ٦٠٠٠ مليون ك م.

ونذكر على سبيل المثال بعد الأرض عن بعض كواكب المجموعة الشمسية:

الأرض تبعد عن المريخ ٧٧ مليون ك م.

الأرض تبعد عن زحل ٦٤٨ مليون ك م.

الأرض تبعد عن نبتون ٤٠٠٠ مليون ك م، وهكذا تقريباً المسافات بين كواكب المجموعة الشمسية الواحدة[١].

٢ ـ نتخطى حدود المجموعة الشمسية، وإن كنا لا نريد أن نتوغل في السماء الأولى بل نريد فقط أن نسافر إلى أول نجم خارج حدود المجموعة الشمسية أو أول كوكب يصادفنا إذا تخطينا حدود مجموعتنا الشمسية التي نتبع لها... يقول علماء الفلك: إن أول نجم بعد المجموعة الشمسية والذي يدخل ضمن مجرتنا يبعد عن الأرض والشمس ٤,٥ أربع سنوات ضوئية ونصف. ما معنى هذا؟ العلماء اختصروا الأرقام واستعملوا الرموز، والرمز الذي اختاروه لاختصار لغة الأرقام هو السنة الضوئية، وكيف يكون هذا؟

سرعة الضوء في الثانية الواحدة (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف ك م.

وإذا ضربنا ٣٠٠٠٠٠ × ٦٠ = فالناتج يعطينا سرعة الدقيقة الضوئية الواحدة وهو/ ١٨,٠٠٠٠٠٠ أي ثمانية عشر مليون ك م في الدقيقة الواحدة.

١٨,٠٠٠٠٠٠ × ٦٠ = فالناتج يعطينا سرعة الساعة الضوئية الواحدة / ١٠٨٠٠٠٠٠٠٠ أي مائة وثمانية مليار ك م.

---

(١) «جمال الكون» يمنى الزهار.

١٠٨٠٠٠٠٠٠٠ × ٢٤ = فالناتج يعطينا سرعة اليوم الضوئي / ٢٥٩٢٠٠٠٠٠٠٠ / أي ألفين وخمسمائة واثنين وتسعين بليون ك م.

ثم نضرب هذا الرقم في عدد أيام السنة (٣٦٥) فيكون ناتج مسافة السنة الضوئية الواحد، أرقاماً لا طاقة للبشر بتخيلها.

وبتعبير آخر فإن علماء الفلك قالوا: إننا لو أردنا أن نصل إلى أقرب نجم لنا خارج حدود المجموعة الشمسية فإننا بحاجة إلى سفينة فضائية تسير بسرعة الضوء أي بسرعة ثلاثمائة ألف كم في الثانية الواحدة، ومع ذلك نحتاج إلى أربع سنوات ضوئية ونصف للوصول إلى هذا النجم.

هذا عن أقرب نجم لنا، فكيف بأبعد نجم عن مركز الكرة الأرضية؟!!

فإننا إذاً بحاجة إلى آلاف المليارات أو التريليونات من الأعوام للوصول إليه، وكلمة الوصول إليه كلمة احتمالية لإتمام الحديث، وليس استعمالها من أجل حتمية الوصول، ونحن نقول: إن دخل الجَمَلُ في سم الخياط فإننا نصل إلى أقرب نجم لنا، وإذا أردنا أن نصل إلى آخر نجم في السماء الأولى فيجب أن ندخل عشرة آلاف جمل معاً وفي نفس الوقت في سم الخياط «ثقب الإبرة».

٣ ـ حدود عيوننا الطبيعية التي وهبها اللّه لنا، ترى في السماء لمسافة مليوني سنة ضوئية، فأي نجم تراه أعيننا المجردة في السماء قد يصل ببعده إلى مليوني سنة ضوئية، ومع ذلك فإن الناظر في السماء يرى أن هناك نجمين يكادان يتلاصقان يقول علماء الفلك: إن ما بينهما من المسافة ما يزيد عن ألف مليون كم.

إذاً ما مقدار المسافة بين نجمين نرى أحدهما في أقصى الجنوب والآخر في أقصى الشمال؟

فالأرقام قد لا تسعنا الكرة الأرضية طولاً لكتابتها.

فنحن حينما نقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

[سورة ق، الآية: ٣٨]

نحس بأن مداركنا أصبحت قريبة من هذه الآية القرآنية [١].

لأن جيل هذا العصر وعلماءه وباحثيه أصبحوا أقرب فهماً وعلماً لمعنى قوله تعالى، حينما يتحدث عن خلقه للسموات والأرض بعد أن تهيأت لهم أسباب هذا العلم وهذا الفهم، وأصبح بين أيديهم علم اسمه علم الفلك درسوا فيه ما معنى النجوم والكواكب والأقمار والمذنبات وحددوا مسارها وأحجامها وأبعادها بعضها عن بعض، وعلموا أن هذا يفوق حد تخيل عقول البشر [٢].

فعلماؤنا السابقون رحمهم الله لم تكن لهم هذه المعلومات الدقيقة عن حقيقة السماء ولا عن حقيقة تلك النجوم وأحجامها وأبعادها، لذلك ما استطاعوا الدخول في شرح هذه الآيات بأكثر مما عندهم من العلوم أو بما تناولوه عن سلفهم وعن أصحاب رسول الله ﷺ.

ولا يمكنك أن تسهب في التفصيل والشرح لمعنى أي آية قرآنية كريمة إن لم يكن لديك فكرة عامة عن الموضوع، أو بما يتصل بمعنى الآية من علوم، وهذا أيضاً ينطبق علينا نحن أهلَ هذا الجيل، فكثير من الآيات القرآنية لا نزال غير قادرين على الخوض فيها بإسهاب وتفصيل دقيقين، فربما تكون هذه الآية للجيل الذي يلينا، كقوله تعالى:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

[سورة الانشقاق، الآية: ١٩]

فأنا لا أستطيع شرحها وبيانها بأكثر من جملة أو جملتين بما أعطاني الله من علم أو فهم. ولكن قد يأتي باحث بعد مِائة عام وتكون قد ظهرت دلائل هذه الآية وعلمها فيتكلم عنها بصفحات كثيرة وبتفصيل دقيق وفق ما لديه من إثباتات علمية حديثة.

والآن ومن منظور اكتشاف العلم لما في بعض السماء الأولى أدركنا

---

(١) هذه الآية الكريمة رد على ما جاء في الإصحاح الثاني في سفر التكوين للتوراة المحرفة وهي أن الله بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام وانتهى من خلقها استراح في اليوم السابع؛ لذلك اتخذه اليهود عيداً لهم فهذه الآية رد على هذا الكفر.

(٢) «التفسير العلمي للآيات الكونية» حنفي أحمد.

قيمة وعظمة خلق السموات، وأدركنا ما معنى أن الله خلق السماوات، وأدركنا عظمة هذا الخالق الذي تسجد له عقولنا وأحاسيسنا قبل أجسادنا.

فأنت حينما تدرك بعض حقائق السماء وتعلم أن أحد هذه النجوم التي تسطع في السماء الدنيا، وتظهر لك كعقلة الأصبع ما هي إلا شمس قد يتجاوز حجمها حجم الأرض مليوناً أو مليوني مرة، ولكن البعد الشاسع الذي يفصل ما بيننا وبينها وهو ما لا يقل عن مليوني سنة ضوئية، هو الذي يجعل حجمها متمثلاً للناظر إليها لا يزيد عن حجم إبهام مشع ومضيء في صفحة السماء.

فخلقنا كلمة، والسموات كلمة، والأرض كلمة، وما بينهما كلمة، ولكن هذه الكلمات الأربع تزن ملايين المليارات من الأطنان من القدرة والعلوم، وذلك حينما أدركنا بعض ما في السماء من علم وقدرة، أدركنا من هو الإله القادر العليم وأدركنا ما معنى قيام الساعة وعظيم أمرها حيث تتشقق السماء وتنكدر النجوم وتتفجر على عظيم حجمها وبُعد ما بينها وبعدها عن الأرض التي نعيش عليها وكذلك ندرك ما معنى قوله تعالى:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾.

[سورة آل عمران، الآية: ١٣٣]

وندرك حجم الجنة وسعتها العظيمة التي وُعد المتقون بها(١).

وكذلك ندرك معنى قوله تعالى:

﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾.

[سورة إبراهيم، الآية: ٤٨]

فالأمر عظيم وجلل أن تبدل هذه السماوات السبع أخرى فليس الأمر بتبديل نجم مكان نجم ولا كوكب مكان كوكب ولا أرض مكان أرض وكذلك ليس الأمر بتبديل مجموعة شمسية أو مجرة كمجرتنا درب التبانة

---

(١) كتاب آيات الله في السماء.

إنما الأمر بتبديل السموات كلها بآلاف بل مليارات مجراتها ونجومها وكواكبها. والله إن الأمر لجلل وعظيم فأين نحن من قدرة الله سبحانه ولو اجتمعت الخلائق كلها إنسها وجنها حيها وميتها على أن يبدلوا بحراً في الأرض أو ينزحوا القمر عن مدارها ولو متراً واحداً لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

أحوال السماء الدنيا والسموات السبع عند قيام الساعة

مدخل: معجزة الخلق الإلٰهي للسموات:

ما الأرض وجبالها وبحارها وأنهارها إلا كوكباً واحداً يسبح هو وكامل كواكب المجموعة الشمسية في جزء يسير جداً من السماء حتى إن مجرتنا التي ننتمي لها والتي تحوي كما يقول علماء الفلك أكثر من مائتي مليار نجم (شمس) تقبع في أقصى جنوب السماء في منطقة تكاد لا تذكر أمام حجم السماء وما فيها من آلاف المليارات من المجرات والتي تحوي كل منها على مليارات النجوم.

هذه السموات على عظيم مِساحتها ومواقع نجومها، والتي أقسم اللّه سبحانه بها لعظيم أمرها بأن القرآن كتاب كريم أنزله اللّه سبحانه إلى الأرض هادياً ومبشراً ونذيراً.

يقول تعالى: مبيناً عظيم أمر مواقع النجوم التي في السماء:

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

وكذلك يبين اللّه سبحانه لنا بآيات كثيرة، عظيمَ أمر السماء وما فيها واتساعها العجيب.. وأنها محبوكة حبكاً عظيماً إلٰهياً، وأنها شديدة في متانتها.. وهذه بعض الآيات الكريمة التي تبين عظيم أمر السماء عند اللّه سبحانه.

يقول تعالى:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ * إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴾.

[سورة الذاريات، الآية: ٧]

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

[سورة النبأ، الآية: ١٢]

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ .

[سورة البروج، الآية: ١]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ .

[سورة الحجر، الآية: ١٦]

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

[سورة الذاريات، الآية: ٤٧]

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ .

[سورة ق، الآية: ٦]

وكثيرة جداً الآيات التي يتحدث فيها اللّه سبحانه عن معجزة الخلق في تلك السموات وفي السماء الدنيا. . . .

كل هذا. . . سيؤول إلى دمار وانفطار وانشقاق وانفجار عند قيام الساعة حتى تتحول السماء إلى كتلة ملتهبة تسيل بحممها حتى تصبح للعيان كوردة حمراء سائلة تغطي السماء كلها ثم يطويها اللّه سبحانه جميعاً في يمينه ثم يبدلها سبحانه بسموات أخرى وهذا ما سيأتي في حينه عند الكلام عن يوم القيامة.

والآن كيف تبدو تلك السموات العظيمة عند قيام الساعة كما جاء في القرآن الكريم؟ وكيف تحدث اللّه سبحانه عن انشقاقها ومورانها وانفجارها وانفطارها؟

آيات انشقاق السموات وانفطارها عند قيام الساعة

يقول تعالى:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾.

[سورة الطور، الآية: ٩]

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾..

[سورة الرحمن، الآية: ٣٧]

﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾.

[سورة الحاقة، الآية: ١٦]

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾.

[سورة المزمل، الآية: ١٨]

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾.

[سورة المرسلات، الآية: ٩]

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾.

[سورة النبأ، الآية: ٩]

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾.

[سورة التكوير، الآية: ١١]

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾.

[سورة الانفطار، الآية: ١]

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

[سورة الانشقاق، الآيتان: ١ ـ ٢]

هذه آيات كريمات ذكرها اللّه سبحانه في كتابه المعجز يبين فيها ما يكون من أمر السماء عند قيام الساعة.. وهو العليم الخبير.. أعلم بما خلق ومتى خلق وهو أعلم بما ستؤول إليه السموات عند قيام الساعة.

ومن عظيم قدرة اللَّه سبحانه في خلقه للسموات، وما ذكرنا عنها بياناً من علماء الفلك، وأن فيها ما فيها من العظمة والقدرة، إلا أنها جميعاً أي السموات لا تشكل أخيراً شيئاً أمام قدرة اللَّه سبحانه.

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

[سورة ق، الآية: ٣٨]

لغوب: تعب أو إرهاق أو ما شابه.

لذلك أمر تبديلها يوم القيامة فيما يأتي ذكره عند الحديث عن هذا اليوم لا تشكل عند اللَّه سبحانه إلا أن يقول للشيء كن فيكون.

وفي حديث لرسول اللَّه ﷺ يبين لنا فيه بعضاً من قدرة اللَّه وعظمته وسعة ملكه، ولا أقول سعة السموات فالسموات جزء يسير من ملكه العظيم.

يقول رسول اللَّه ﷺ: «**ما السموات السبع للكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة وما السموات السبع والكرسي للعرش إلا كحلقة مرماة في فلاة**»(١).

وصدق اللَّه سبحانه إذ يقول:

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]

ما هذه العظمة الإلٰهية التي تعجز عقول البشر عن فهمها وإدراكها، ويحار الفهم في قدرتها، وأي قدرة تستطيع أن تفهمها وعلماء الفلك كل يوم في اكتشاف جديد وعلم جديد، كلما ظنوا أنهم وصلوا إلى نهاية الطريق في علم الفلك فإذا بهم أمام اكتشاف جديد يعيدهم أطفالاً صغار العقول يحبون على الأرض(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٤٢).

(٢) اكتشف علماء الفلك في فرنسا عام ١٩٩٥ تجمع مجرات جديدة تحتوي على ٢٧ ألف مجرة تحوي كل مجرة تقديراً على أكثر من مائة مليار نجم على محيط ٢٩٠ مليون سنة ضوئية وتبعد عن مركز الأرض ملايين السنوات الضوئية، وللعلم الثانية الضوئية الواحدة (٣٠٠ ألف كم)!!

بيان وتفسير آيات انشقاق السماء وانفطارها عند قيام الساعة

عند بيان وتفسير آيات انفطار السموات وانشقاقها عند قيام الساعة كما وردت في القرآن الكريم ندرك عندها ما يحل في السماء من دمار هائل لتنتهي أخيراً في قبضة الرحمن.

أولاً:

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾.

[سورة الطور، الآية: ٩]

قال ابن عباس: تتحرك تحريكاً، **وقال مجاهد:** تدور دوراً، **وقال الضحاك:** استدارتها وتحركها لأمر اللّه وموج بعضها في بعض، **وقال ابن جرير في تفسيره:** هي التحرك في استدارة.

أي هي كالزوبعة الشديدة التي تأتي وتدور حول نفسها بعنف وتدمر كل شيء حولها ثم تستقر في النهاية في مكان وتصغر وتتلاشى.

ثانياً:

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾.

[سورة الرحمن، الآية: ٩]

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي بعد انشقاقها ـ أي تذوب كما يذوب (الدُّرْدي) وهو ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والدهان والفضة ـ والزيت في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وتارة زرقاء وخضراء وذلك من شدة الأمر وهول قيام الساعة وتفجر النجوم والكواكب والنيازك والأقمار، **وقال ابن عباس:** ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ كالأديم الأحمر، **وقال الحسن البصري:** تكون ألواناً، **وقال السدي:** تكون كلون البغلة الوردة، وتكون

كالمهل كدردي الزيت، **وقال مجاهد:** ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كألوان الدهان، **وقال ابن جريج:** تصير السماء كالدهان الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم.

. . . من مجموع هذه التفسيرات ينتج معنا أن السماء تتفجر بنجومها العملاقة وكواكبها العظيمة، ولكثرة عدد النجوم والكواكب والتي هي بالمليارات تصبح السماء ذات ألوان كألوان الطيف ويغلب عليها اللون الأحمر، لأن الحمم والبراكين إذا اشتد أُوارها لا تقذف إلا الحمم الحمراء المخلوطة بالنار، وهذا مصير السماء حتى تبدوَ لمن يراها يومئذ كأنها وردة حمراء وصفراء وخضراء مصبوغة بالألوان كما تصبغ ألوان الدهان.

ثالثاً:

يقول تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

[سورة الحاقة، الآيتان: ١٦ ـ ١٧]

كلمة ﴿وَانشَقَّتِ﴾ في الآية الكريمة كلمة واحدة ولكن لها معان عظيمة كما قدَّمنا في آيات أخرى. . . ولكن المتابع للتفسير يجد أن كلمة انشقت التي أتت في أكثرَ من آية. . . تحمل في كل آية معنى تفسيرياً آخر يضاف إلى المعاني الأخرى، والسؤال يبقى لماذا لم يستعمل اللّه سبحانه بدلاً من انشقت كلمة تفجرت مثلاً أو تصدعت أو تفتتت؟؟

والجواب: إن كلمة انشقت لا تكون والعلم عند اللّه إلا لشيء متين جداً وقوي جداً يصعب اختراقه أو تمزيقه أو تصدعه أو انفجاره، لذلك نجد أن اللّه سبحانه عندما يتحدث عن السماء وبنائها يتحدث عن قوة السماء وتماسكها فشبهها تعالى بالسقف مرة.

يقول تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

[سورة الأنبياء، الآية: ٣٢]

ويقول تعالى عن بنيان السماء وأنها ليس لها فروج أي فتوق وشقوق:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

[سورة ق، الآية: ٦]

وفي سورة الملك يبين اللّه سبحانه عظمة السماوات وقوتها وتماسكها وأنها طباق بعضها فوق بعض:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

[سورة الملك، الآيتان: ٣ ـ ٤]

ووصفها اللّه تعالى بالشديدة.

يقول تعالى:

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

[سورة النبأ، الآية: ١٢]

وكثيرة هي الآيات الكريمات في هذا الخصوص

. . . فرغم كل هذا البنيان العظيم للسماء وأنها ليس لها فروج، شديدة ـ طباق ـ سقف محفوظ ـ وليس فيها تفاوت. . ومع ذلك تصبح عند قيام الساعة ﴿ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة متداعية بعد هذا الإحكام. . يأمرها اللّه سبحانه فتتشقق من أمره بعد كل هذا الربط العظيم فتوهى وتضعف وتسرع إلى يمين الرحمن فيطويها جميعاً بيده. . هذه السماوات والتي فيها مليارات المليارات من النجوم والكواكب والتي يبلغ حجم كل نجم فيها ما يزيد عن مليون مرة حجم الأرض التي نعيش عليها!!

. . . تصور هذه الأعداد الهائلة من النجوم (الشموس) التي تتوقد ناراً وحمماً تصبح من أمر اللّه طائعة ذليلة تسعى إلى حتفها ونهايتها ـ هذه الشموس الهائلة. . . (١) سعة وحجماً وبعداً واتساعاً. . . فهي ذات أحجام مختلفة يزيد بعضها عن بعض ربما ملايين المرات (٢).

---

(١) يقول علماء الفلك: إن شمسنا كتلة هائلة ملتهبة من النار تمتد ألسنة نارها إلى مسافة (١٥) خمسة عشر ألف ميل من جميع اتجاهاتها نعم وإلا كيف تصل أشعتها إلى الأرض وهي تبعد عنها ٩٤ مليون كم.

(٢) لقد اكتشف المرصد الفلكي في جنوب فرنسا عام ١٩٩٩م شمساً في إحدى المجرات القريبة، ويبلغ حجمها (٢٥) مليون مرة حجم شمسنا وقد تناقلت هذا الخبر جميع وكالات الأنباء العالمية والمجلات العلمية.

ومهما تحدثنا عن عظمة السماء فإنا لا ندرك شيئاً عن ماهيتها إلا بعض علم أوصلنا اللّه سبحانه إليه، من أجل أن ندرك معاني السماء وبعض قدرة اللّه سبحانه. . . وتكفي هاتان الآيتان من سورة الواقعة ليبين اللّه لنا سبحانه عظمة السماء.

يقول تعالى:

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

[سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦]

﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بحقيقة السماء وعظمتها وبمواقع نجومها أي بعدها عن بعض وأعدادها الهائلة وأحجامها الكبيرة. . .

. . . تصوروا كل هذا سيدمر ويتصدع ويتشقق وينفجر ويجمع في يد الرحمن، يقول تعالى:

﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٦٧]

. . . فإذا ما تشققت السموات وأصبحت وردة كالدهان. . ترى الملائكة والتي لا يعلم عددها إلا اللّه، ولا يعلم أحجامها وأشكالها إلا اللّه

. . تراها وبأمر من اللّه على أرجاء السماوات تنتظر أمر ربها بما تفعل

. . . فإذا كانت هذه حالَ الملائكة وحال السماوات. . . فإن هناك من الملائكة ـ ملائكة خصهم اللّه سبحانه بحمل العرش وهذا في قوله تعالى:

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ ويبقى رقم ثمانية في علم اللّه. . أهو ثمانية ملائكة. . أم ثمانية آلاف أم ثمانية ملايين. . . أرقام واحتمالات لا ندركها، فهي في علم اللّه، ومن أجل العلم والمعرفة نورد مرة أخرى الحديث الشريف عن رسول اللّه ﷺ. . عن صفة واحد من الملائكة من حملة العرش.

ـ عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**أذن لي**

أن أحدث عن ملك من ملائكة اللَّه تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» (١).

أي كما بين السماء والأرض ما بين شحمة أذنه وعاتقه. . . وهذا ملك واحد سبحان اللَّه وتعالى عما يشركون. . كم سيعض الظالمون على أيديهم حسرة وندماً أنهم اتخذوا لهذا الإله العظيم شريكاً أو ولداً تعالى اللَّه عما يقولون.

. . . ولننظر ولنقرأ معاً في بعض كتب المفسرين عن شرح هاتين الآيتين العظيمتين اللتين تصوران تصويراً رائعاً لما يحدث عند قيام الساعة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

يقول ابن كثير في تفسيره: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾:

. . عن علي قال: تنشق السماء من المجرة ـ **وقال ابن جريج**: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾.

[سورة النبأ، الآية: ١٩]

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء: أي حافاتها، **وقال الضحاك**: أطرافها، **وقال الحسن البصري**: أبوابها، **وقال الربيع بن أنس في قوله**: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ يقول: على ما استرق من السماء ينظرون إلى أهل الأرض، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ـ **وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى**: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة.

ويقول الشيخ محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعاً مما داخلهم من هول ذلك اليوم ومن عظمة ذي الجلال الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن

(١) رواه أبو داود.

ثمانية من الملائكة العظام فوق رؤوسهم. **وقال ابن عباس**: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله.

ويقول أصحاب الموسوعة القرآنية الميسرة: أي تشققت السماء وتفرقت أجزاؤها فهي يومئذ ضعيفة، والملائكة على جوانب السماء وأطرافها، ويحمل عرش ربك فوق رؤوسهم يوم القيامة ثمانية أملاك.

.. من كل التفاسير نجد تفسيراً لهذه المشاهدات التي تفوق خيالنا البشري مما ذكر الله سبحانه في كتابه.. وأن الأمر كبير بل أكبر وأدهى وأعظم من كل التفسيرات والتحليلات، نعم أدهى وأمر لقوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

رابعاً:

يقول تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾.

[سورة المزمل، الآيتان: ١٧ ـ ١٨]

في تلك الآيتين الكريمتين يتوجه الله سبحانه إلى من يختار طريق الكفر ثم يموت عليه ويلقى الله سبحانه كافراً... فهؤلاء دخلوا تحت لعنة الله سبحانه والملائكة والناس أجمعين كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية: ١٦١]

... أيها الكفار بأي قوة وقدرة لكم تتقون أي تبعدون عنكم هذا اليوم يوم قيام الساعة وأهوالها وما يليها من يوم القيامة... وما ينالكم فيه من عذاب وذل وصغار ومهانة؟.. كيف تتقون هذا اليوم الذي يجعل الولدان (الأطفال الصغار) شيباً من هوله وفزعه.. ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ هذه السماء التي تنفطر وتتشقق وتتصدع ولا نعلم ماذا تحدث من أصوات مرعبة مخيفة أثناء تشققها وانصداعها من أمر الله سبحانه... أيها الناس إن وعد الله مفعول وسترون بأعينكم وعد الله وقيام الساعة والبعث والنشور والحشر ـ وأرض الميعاد وستقفون بين أيدي أحكم الحاكمين ليحاسبكم.

ويقول ابن كثير في تفسيره:

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أي كيف لا تخافون أيها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ وكيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع الأكبر إن كفرتم ومعنى قوله: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله.

ويقول الطبري في تفسيره:

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ **قال الطبري**: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ أي السماء متشققة ومتصدعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أي كان وعده تعالى لمجيء ذلك اليوم واقعاً لا محالة لأن الله لا يخلف الميعاد.

خامساً:

يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾.

[سورة المرسلات، الآيتان: ٨ ـ ٩]

آيتان عظيمتان تتحدثان عن حالة السماء بنجومها وكواكبها وأقمارها ونيازكها وشهبها... لأن النجوم جزء لا يتجزأ من السماء، وقد قدَّمنا فيما مضى من صفحات عن عظيم حجم النجوم وعظيم مواقعها، وأن الله سبحانه أقسم بمواقعها لعظيم أمر مواقع النجوم، فإن السماء وفيها مليارات المليارات من النجوم وإن أقرب ما يفصل بين أقرب نجمين ما يزيد عن آلاف الملايين من الأميال فما بالك بما يفصل أبعد نجمين.. هذا بعلم الله ـ وقدَّمنا أن النجوم كتل ملتهبة من النار، تمتد ألسنتها إلى ما يزيد عن خمسة عشر ألف ميل... هذه النجوم ستخمد ويذهب نورها وبدوره يذهب ضوؤها فإذا نظر الناظر بعد قيام الساعة إلى السماء فلا يجد النجوم اللامعة لأنها ذهبت وذهب نورها وانطفأت.. فإذا كنا في ظلمة مطبقة فأشعلنا النار فإنها تضيء ما حولها، وكلما زادت النار زاد نورها فإذا أطفأنا النار عاد الظلام مرة أخرى

ولم نتبين موقع النار وهكذا النجوم عند قيام الساعة إذا ذهب ضوؤها لم نعد نستطيع أن نحدد موقعها.

وأما قوله:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أي تشققت وتصدعت بعد أن كانت محروسة متماسكة عليها ملائكة عظام يحفظونها.

يقول تعالى: من سورة الجن:

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

[سورة الجن، الآية: ٨]

فإذا ما أتاها أمر اللّه سبحانه تترك الملائكة مواقعها من الحراسة فتصبح على أرجائها بأمر اللّه كما قدمنا في آية قبلها ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ ففرجت السماء عندئذ لأنها ستصبح واهية متصدعة.

ويقول الصابوني في صفوة التفاسير: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي محيت وذهب نورها وضياؤها ويقول في ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾: أي شقت السماء وتصدعت.

ويقول ابن كثير في تفسيره: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي ذهب ضوؤها.

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أي فطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها.

سادساً:

يقول تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجًا * وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا﴾.

[سورة النبأ، الآيتان: ١٨ ـ ١٩]

أفواجاً: أمماً أو جماعات مختلفة الأحوال.

أبواباً: أي صارت ذات أبواب وطرق.

نجد في هاتين الآيتين الكريمتين أسلوباً مغايراً لكثير من الآيات التي تتعلق في نفخة البعث (النفخ في الصور) حيث يأتي الناس أفواجاً.. وكذلك تفتح السماء فتكون أبواباً.

والمعنى أن الناس حينما يخرجون من الأرض عند نفخة البعث فإنهم